دار قصص وحكايات
للنشر الإلكتروني ٢٠٢١

لو عاد بي الزمن

الحسين سليم حسن

•• روايات قصيرة ••

لو عاد بي الزمن

(روايتان قصيرتان)

الحسين سليم حسن

العنوان: لو عاد بي الزمن

النوع الأدبي: روايتان قصيرتان

المؤلف: الحسين سليم حسن (نبذة)

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

(الرواية الأولى)

لو عاد بي الزمن

لا شيء يستحق الذكر في حياتي سوى صورة حبيبي المقابلة لي في دكان والدي ،حيث أجلس كل يوم منفصلةً عن الأشياء ،سارحة في حياتي الافتراضية مع حبيبي الذي لم أقابله يوماً ،ولا أعلم عنه شيئاً وكل ما أستطيع تأكيده أنه استشهد في الحرب ،وأنا أحببته بعد ذلك بكثير ،من خلال صورته فحسب .

لم تكن حياتي متخمة بالأحداث والمغامرات الصبيانية ،بل كانت هادئة إلى حد الضجر ،تغلب عليها الوحدة والأحزان المخترعة ،والتنقل الأنيق ما بين الذكريات المنقوصة ،الجائعة للاكتمال .

لما بلغت الثلاثين أدركت بأنه فاتني قطار الزواج كما يبت مجتمعي ،وسألت نفسي :ما الذي شغلني طوال تلك السنوات ؟مادمت لم أكمل تعليمي الجامعي ،بعد أن أقعدني تفجير في منزلي طوال عامين جريحةً في كل جزء مني ،غارقة في ذكرياتي ،رغبةً مني في أن أرممها جميعاً ،وأن أعيد اعتباري لذاتي في كل مرة ضعفت فيها أو خفت ،أو استسلمت لعدم منطقية ما يفرضونه عليك مقابل أن تحظى بالأمان والحياة الجيدة من منظورهم .

كان والداي شخصين عاديين ،لم تثرهم سوى الحياة نفسها ،وتأمين الأجمل والأثمن والأفضل فيها إلى أن جاءتهم الحرب ،وانشغلوا في مخاوفهم

الجديدة ،والتزموا البيت مرددين طوال سنوات الحرب كلها عبارةً واحدة : (نريد العيش فقط) .

وحتى بعد إصابتي في الحرب لم تتغير تلك الجملة ولم يعكفوا عن قولها ،بل شددوا عليها وزادت صلواتهم معها ،ودعائهم بشفائي ،وصار والدي دائم الذعر ،كثير الشغل ،قلق البال ،ينهشه خوفه من فقداننا لكل شيء ،أما أنا فشكل السرير الذي أرقد فيه جريحة مكاناً ملائماً للغوص في ذكرياتي والانتقام منها والرغبة في إعادة خلقها .

إلا أنني اليوم ،وبعد أن التأمت جراحي ،طلبت من والدي أن يعهد لي مسؤولية إدارة محله الذي يقع في شارع هادئ في منطقة حديثة الأبنية ،حيث يقع منزل حبيبي الذي تطل صورته من الشرفة مبتسمةً لي دوماً وتحتها خطط اسمه الحقيقي الذي لن أبوح لكم به ،وسأكتفي به لنفسي لأضيء به حياتي المظلمة .

أجلس في دكان والدي ،أتأمل صورة حبيبي ،وأستعيد الأشياء التي دفعتني إلى عشقه ،عيناه الجميلتان ،الشعور بفقدان العدالة تجاهه ،أناقته ،وتلك النظرة الواثقة التي تمنح مشاهدها ثقةً ورغبةً عميقة في ولوج عالمه .

ألمح سيدةً متشحةً في السواد على الشرفة الخاوية ،شعرها أبيض بالكامل ووجهها ذو العظام البارزة والذي تجهد في تحريكه كقطعة جليد تشكلت فوق حجر .

أتأملها لبضعة دقائق علها تلتفت إلي لأعترف لها بعشق ابنها ،ولأخبرها بأنه حبي الأول والوحيد ،وبأنني نادمةٌ على مؤاثرتي الوحدة وعدم البحث عنه وهو حيُ لأمنعه من الموت ،أو لأسبق قاتليه وأقتلهم ،ليتسنى لي التعرف به والوقوع في حبه على الطريقة التي أفضلها .

لكن والدته سرعان ما تدير لي ظهرها وتغيب وراء ستارة الشرفة .

أحدثه قليلاً عن نفسي ،ريثما يتسنى لي أن أعلم عن حياته وأخبره بأسراري .

ذات يوم ولدت لوالدين عاديين للغاية ،تاجر وربة منزل ،وتربيت على الطريقة الاشتراكية رغم ثراء والدي ،فهذا ما كان دارجاً آنذاك ،أثرياء بدؤوا من الصفر يعلمون أولادهم أهمية الكدح والمعاناة وقيمة الأشياء ،ومساء يترددون إلى أماكن العبادة .

نشأت عموماً في زمن الرخاء ،ونلت حياةً كريمة وملونة بالرغم أنها كانت مليئة بالتناقضات ،وكان هذا حال الكل فكنا على سبيل المثال :نهتم بكوبا

الشيوعية وملوك الطوائف وتشجيع الصناعة الوطنية ونتلذذ بشرب البيبسي إلى جانب الصفيحة (وهي أكلة شعبيةٌ في بلادنا)

ونشاهد المسلسلات المكسيكية وخطب صلوات الأعياد في الجوامع والكنائس على القناة الأرضية الوطنية .

كنت مدللةً ،هكذا كان يردد والدي ،ابنتي المدللة الوحيدة ،وكان يمطرني الهدايا من كتب وروايات من الشرق والغرب ،من أليس في بلاد العجائب إلى الف ليلة وليلة ولم يبخل عليَ حتى في مجلات الأطفال المحلية إلا أنه في الوقت ذاته كان لزاماً علي أن
أبقى حبيسته وأمي ،وحبيسة منزلنا الذي يطوي بين جدرانه كلُ ما تشتهيه فتاةً مثلي .

ما كان لزاماً علي أيضاً هو ألا أخيب ظنهم بي ،وكنت أسمع هذه الجملة منهم بشكلٍ يومي ،عندما أقصر في شيء ما أو أخسر أمام أحدهم في مستوى الذكاء أو المعرفة أو حتى الأمور المتعلقة بكوني أنثى في عالمٍ شرقي.

كنت الأولى في صفي ،وعريفته ،مالكة سلطته ،إلى الدرجة التي اقتنعت فيها بأنه على عاتقي مسؤولية تهذيبهم ومساعدتهم للحاق بي ،أو هذا بالأحرى ما أقنعني الجميع به ،المدرسون والمدرسات ،والدي الذي ضمني إلى حزبه لما بلغت الرابعة عشرة ،فزاد من كبريائي كبرياءً لما أقنعني بأنني أملك كل الحقيقة

المطلقة وأكاد أقترب من الطوباوية المطلقة باعتناقي لأفكار ذلك الحزب الاشمل والاقوى والأهم.

أما والدتي فلم تضجر يوماً من تلقيني دروساً عن تفوقي على جميع زملائي ،في التهذيب والذكاء والمكانة الاجتماعية المرموقة وعن عدم الحاجة إلى أن أكون جميلةً ،طالما أنني متفوقة وأملك كل شيء .

منحني ذلك كله ثقةً جامحةً ،وربما غروراً وحيوية ،دفعتني إلى منح نفسي صلاحياتٍ لم تكن من حقي ،كأن أمر بجانب زملائي الكسالى أو الذين ينتمون إلى عائلاتٍ ليست من مستوانا على حد تعبير والدتي ،دون ان ألقي التحية وأنظر إليهم باستعلاء ،أو ما كنت أقوم به مع (الياس) ذلك الفتى الذي قررت القرعة بأن يشاركني مقعدي الدراسي طوال فترة دراستي الإعدادية ،فقد كنت دائمة السخرية منه على كسله ،وتناوله للنوع ذاته من الشطائر كلَ يوم ،رغم أنني كنت أجد عينيه جميلتين للغاية ،براقتين كالنجوم ،وأحب لون جلده الزيتوني ،وربما كنت مغرمةً به في تلك الفترة بيني وبين نفسي إلا أنني لم أخبره بذلك ،أو أنني حتى لم أدرك ذلك لعماوتي وغروري .

أذكره اليوم وأشبِه عينيه بعيني حبيبي الشهيد المجهول ،والذي التفتت والدته صوبي أخيراً ،والتقت عينانا ،فرفعت يدي أسلم عليها دون أن أصدر صوتاً ،واكتفت هي بهز رأسها وهي عابسة دون ان تتكلم أيضاً .

ثم دخلت لتتركني مجدداً مع عيني ابنها ،والذي رحت من اجله أقلب صفحتي على الفيس بوك لأعثر على صديقي (الياس)لأخبر حبيبي بتتمة قصته ،وتساءلت فيما لو كان من المستحسن التواصل معه مجدداً لإنهاء ما كان عالقاً بيننا ،وكدت أعكف عن ذلك لما رأيت صورته على الفيس بوك برفقة خطيبته وقد زاد وسامةً ،وزاد البريق الساحر في عينيه .

إلا أنني في اللحظة الأخيرة قررت أن أحادثه وأطلب رؤيته مهما كانت النتائج.

الحيُّ الذي يحتضن دكان والدي هادئُ وجميل ،هذا مالحظته بعد عودتي من لقائي مع الياس ،حيث تقابلنا في مقهىً يطل على البحر ،وتحادثنا لساعاتٍ واختلطت أحاديثنا بين الماضي والحاضر .

أخبرني خلالها بأن له خطيبة يحبها من كل قلبه ،وأنه لم يتسرح بعد من الجيش ورغبت في أن أخبره بسري الدفين وأعترف له بحبي القديم إلا أنه بدا بعيداً كلياً عن الماضي ،على عكسي أنا .

كنا نتحدث كناضجين روضهما حزن الحرب ،إلاأنه كان أشد ارتباطاً بالحاضر مني ،وكنت طوال الجلسة أرمقه بنظرات تحسرٍ ،ويسحبني جمال عينيه نحو الماضي ،ونحو العقوبات التي فرضت عليه بسببي ،عندما كنت أسجِل اسمه في قائمة المشاغبين في الصف حين توكل لي تلك المهمة الفخرية ،أو نحو عصيانه على التصفيق لي في دروس التاريخ لما كنت أتحدث دون تلكؤٍ عن الازدهار الثقافي في العصر العباسي ويطلب المدرس من الجميع التصفيق لي بحرارة عندما أنهي ذلك ،ويأبى الياس أن يصفق لي لغضبه الشديد من غروري.

وتساءلت عن عدم تذكره أمراً هاماً أخراً ،لما تحدثنا في مقعدنا بصوتٍ خافت عن الجنس ،وجربنا ضم بعضنا كنوعٍ من الحميمية .إلا أننا ورغم كل ذلك الوقت الذي قضيناه معاً في المقهى ،لم يترك لي وعداً باللقاء مجدداً عند

المغادرة ،بما يوحي بأن غضبه لم يهدأ طوال تلك السنوات وأن عودتي غير مهمة.

لذا بكيت وأنا عائدة من لقائي مع الياس ورحت ألعن تلك التربية التي لم أدرك آثارها علي إلا بعد فوات الأوان ،وولجت الحي وكأنني أتعرف إليه للمرة الأولى وشعرت بانتماء عظيم له وشوق للقاء حبيبي الوحيد الشهيد .

وما إن جلست قبالة صورته حتى رن هاتفي ،وكان الياس هو المتصل ،وأخبرني في مكالمته أنه يرغب بأن نعود صديقين ،وبأنه سيعرفني بخطيبته عما قريب وأننا جميعاً سنكون سعداء بأن نجتمع كلنا ونحيي الماضي .

ينبغي القول بأن (الياس) لم يكن الصديق أو الحبيب الوحيد في حياتي والذي توجب علي حل سوء التفاهم بيني وبينه ،فقد منعني كبريائي وأبعدتني أمجادي المرتقبة التي حشاها والدي في رأسي عن التمتع بأكثر اللحظات الضرورية والطبيعية لفتاةٍ مثلي مع زملائها وأصدقائها ،ومع كل أحد .

فكم من المرات كنت أود من كل قلبي أن أمد يد المساندة وأعبر عن تعاطفي مع أحزانهم ،كما حدث ذات مرة لما كنا عائدين جميعاً في حافلةٍ من امتحان الشهادة الإعدادية ،وكانت إحدى صديقاتي يائسةً للغاية ،وكنت في داخلي راغبةً كل الرغبة في أن أساندها وأشد على يدها ،إلا أنني مثل كل مرةٍ تذكرت أنني أبليت حسناً في الامتحان وأن هذا كل مايهمني الآن ،فصمتت بكل أنانية .

أو ما كان يحدث لما ألاحظ أحد زملائي وهو يغش في الامتحان ،فأشي به على الفور للمعلمة التي تراقبنا ،وأؤذيه بعماوةٍ تامة .

والحق يقال في أنه لا يمكن أن ألوم نفسي فقط على كل هذا ،فالمدرسون والمدرسات والعالم كله من حولي كان يزرع وهم الكمال في رأسي .

كنت في المدرسة تلك الطفلة التي تقرأ تولستوي وتحل أصعب مسائل الرياضيات ،وفي المنزل تلك الفتاة المهذبة التي توفر لها عائلتها ما يجعلها متفوقة على جميع أقرانها .

إلا أنني لم أكن سعيدة بتاتاً ، ولوعاد بي الزمن لكنت اقتربت من زملائي وجعلتهم أصدقائي ،ووقعنا في المشاكل معاُ ربما بدلاً من قراءة مشاكل الشخصيات الرسومية في مجلات الأطفال المحلية .

أخبر حبيبي الشهيد بكل هذا ،وأتساءل إن كنت أبدو له مثيرة للشفقة ،إلا أنني للأسف لا يمكنني التماس انطباعه الحقيقي .

وألمح على شرفة منزله طفلاً يبكي وينادي جدته ،فتخرج والدة حبيبي له ،فأتساءل فيما لو كان هذا طفل حبيبي . ثم يفاجئني (الياس) برفقة فتاةٍ فائقةٍ في الجمال على باب دكاني .

طوال سنوات الحرب لم تتشكل بيني وبين أحد علاقة ما يمكن اعتبارها نوعاً من الصداقة ،لذا كانت عودة الياس إلى حياتي مهمةً ،رغم انزعاجي الشديد من فكرة ارتباطه بفتاةٍ أخرى ، وعودة خيالاتي الجنسية المربكة إلى أحلامي ،كأن أرى نفسي أمص عضوه الزيتوني اللون ،وأنا أنظر في عينيه الجميلتين .

بعض تلك الخيالات كانت تزورني في المرحلة الجامعية ،في تلك الفترة التي التزم والدي فيها المنزل وعاشا كما لو أنهما عروسان جديدا في منزلهم الذي أصبح يمثل العالم بالنسبة لهم ،متغاضين عن العنف الذي يحصل في الخارج.

وبدا منزلنا حينها دافئاً فنمت لدي رغبةٌ في أن يكون لي زوج أو حبيب ،ورحت أتخيل أولئك الشبان زملائي في الجامعة والذي يمنعني كبريائي العتيق من التكلم معهم ،وهم يضاجعونني .

وكان هذا يحدث بكثرةٍ لما أغفو في فترات انقطاع الكهرباء المستمر في الحرب ،أو بعد أن قعدت جريحةً في فراشي .

حينها كنت أقضي يومي مابين الجامعة والنوم وقراءة رواياتٍ كلاسيكية ضخمة ،أو في أحاديث مضجرة ومملة مع والدتي .

أخجل من إخبار حبيبي الشهيد بتلك الأمور فلا أطيل الحديث عنها ،وعن تلك الأيام التي قضيناها في الحرب حبيسي منزلنا ،يشغلنا هاجسٌ واحدُ هو حماية أنفسنا من مخاطرها المحتملة .

حتى أن والديَ تخلا عن شيءٍ من كبريائهما القديم ،فابتعد والدي مثلاً عن خطاباته المعتادة التي يمدح فيها تفوقه التجاري وحزبه الذي بدأ ينفر منه ،وطالت أوقات جلوسه في المنزل يشاهد نشرات الأخبار على القنوات الرسمية ،فتحولت خطاباته إلى تذكيرنا الدائم بوجوب محافظتنا على صمودنا.

أما والدتي التي تحولت جذرياً من امرأة متكبرة ومتعالية ودائمة الفخر بعائلتها إلى واحدةٍ من تلك الثرثارات التي لا يهمهن سوى قص الحكايات عن هذا وذاك ،وتتبع أخبار الناس .

وإلى اليوم لم تبرأ من عاداتها الجديدة تلك ،وحتى لما زارنا الياس برفقة خطيبته في المنزل ،جعلتني أبدو كالبلهاء أمامهم لما استلمت زمام الحديث وراحت تصفني بقليلة الحظ أمامهم ،لما حدث لي في الحرب وحرمني من إكمال دراستي الجامعية ،و لأنني لم أحظلى حتى اليوم بعريس !

واسترسلت في حديثها ،إلى الدرجة التي جعلت من الياس يرمقني بنظرة دامعة توحي بأنه يشفق علي ،دفعتني إلى الانسحاب وولوج غرفتي إلى أن حان وقت وداعهما .

لكنه وفي اليوم نفسه ،أرسل لي عبر الواتساب أحد الفيديوهات المضحكة التي جعلتني أقهقه بشدة في سريري ،ثم أبكي طوال الليل بعدها .

((أيتها الحبيبة الغالية ،أسمعيني المزيد ،ولا تتركي الهم ينهشك ،لو تعلمين كم أرغب في العودة إلى الحياة من أجلك ،فقد أدركت معناها بك ،أنا الذي

سلبت مني حياتي على غفلةٍ بكل قسوةٍ ودون أية شفقة ،دون أن أشبع من أي شيء فيها ،تاركاً فراغاتٍ لم تكتمل ،وأناساً لهم حقوقُ علي ولي حقوق لديهم ،رحلت قبل تحقيق العدالة ،أو حتى ربما قبل أن أبدأ بالعيش ،أو أفهم نفسي وأفهم أي أحد .

وأنا مثلك ،لم أعرف الحب من قبلك ،ولكن لسبب آخر ،فلم تسمح السنوات القليلة لي في هذه الحياة أن أحب أو أكره أو أتمرد مثلك .

أنت أيتها الحبيبة ذات القلب الصافي ،ليس عليك أن تجلدي نفسك فأنت لست المذنبة في كل هذا .

أود أن أضمك وأن آخذ بيدك وأمنحك شيئاً من الشجاعة لتغلبي مخاوفك ،لكن الشجاعة ياحبيبة لاتثمر خيراً دوماً .

عديني ياحبيبتي ،أن تبتسمي لي كل صباح كما أبتسم لك ،اصرخي ،أفرغي كل غضبك في وجهي لو أردت ،فقط ،ابتسمي لي بعينيك المشرقتين يا جميلتي ...!!)).

أهلوس وأختلق حواراتٍ مع حبيبي ،ويأتيني صوته مشابهاً لصوت (الياس).

إن كنت أود التصالح مع مخاوفي كما يرغب حبيبي فعليَ أن أستمر في الاعتراف له بكل ما أخفيه ،مثل أنني ذت مرة أغرمت بشاب قذرٍ ينتمي إلى إحدى العائلات الفاسدة ،وكان قد استحوذ على ممتلكات الكثيرين بالقوة والترهيب ،كمحاولة لاختبار معنى الشر والتفتيش عنه في داخلي .

كنت أرى والدي يعود إلى المنزل لما كانت الحرب مشتعلةً ،وأول ما يقوم به هو السؤال عني ،ثم يجلس إلى أريكته صامتاً ،ووجهه طفولي لا يشبه وجهه القديم المعتز بحزبه وثروته .

فأسارع إلى جوالي وأبحث عن صفحة ذلك الشاب على الفيس بوك ،لأستمد من حياته البوهيمية قوةً ما .

كان هذا يحدث بيني وبين نفسي ،ولم أخبر أحداً به ،سوى إحدى صديقاتي التي تدعى (براء)وهي صديقة قليلة الكلام تعرفت بها وهي تنجز اوراق القبول في جامعة مدينتا ،بعد ان هجرتها الحرب من محافظتها ،بالرغم من اعتناقها لبعض الأفكار الغريبة والمختلفة عني كلياً كاعتبارها ارتياد الكافتيريا مضيعةً للوقت أو أقرب إلى المحرمات دينياً وعملها كخياطةٍ إلى جانب دراستها الجامعية كي تضمن مستقبلها على نحوٍ أفضل ،فإنه يمكن القول بأنه بالرغم من ذلك أصبحنا شبه صديقتين .

كنت أحادثها عن محبتي لذلك الشاب وكانت توبخني دوماً على هذا ،لذا كنت أتقصد أن أكلمها هي بالذات عنه لأنني كنت مدركةً بأنني أعبث لا غير ،وأرغب في شخصٍ ما يذكرني بذلك على الدوام .

بعد ذلك اختفت براء كلياً من حياتي بعد ان نجحت في إبعادي عن ذلك الشاب .

اختفت وهي تحمل لي في قلبها كل الكراهية ،كما اعترفت لي في آخر لقاء ،لأنها طلبت مني مساعدتها في إنجاز مشروع تخرجها الجامعي إلا أنني نسيت موعدنا المتفق عليه ،فلم تسامحني على ذلك .

يؤسفني ان يعلم حبيبي كم أنني عبثية ،لا مبالية ،خرقاء مع كل مايحيط بي ،إلا أنني أحبه من كل قلبي ! أما عبثيتي فلها قصتها ،فالعبثية التي تكتسحني مردها ربما إلى طفولتي ،إلى تلك الفتاة التي تعيش داخل مايشبه المملكة ،مع قناعات أب مترسخةٍ في عقلي ،عن أننا أفضل من يقطن البلاد ،لأننا مخلصون للحزب الأشمل والأعظم ،للقضية والدين والشرف والعادات والتقاليد !

الأب الذي كان يستغل أوقات فراغي وموهبتي في الكتابة لأكتب له خطاباتٍ وألقيها فيما بعد في اجتماعاته الحزبية ،عن دورنا العظيم في الصراع العالمي .

وكنت أنا مقتنعةً تماماً بأن ذلك كان يضيف إلى تميزي وتفوقي ،وأذكر كيف كنت أعود إلى مقعدي الدراسي بعد إنجازي لخطابٍ ما ،وأحدث الياس بتشاوف وفوقية عنها .

وهذا من الأمور التي لم يسامحني ربما عليها الياس ليأتي إلي بعد تلك السنوات ليفرح بعذاباتي ويشمت بشقائي !

القتل ،هو الخط الأحمر الأشد خطورةً في رأيي ،وهو و يا للعجب أكثر الخطوط التي يتم تجاوزها في بلداننا الشرقية ،ويتم الغفران عن مرتكبيه بكل وقاحة .

عشت سنوات الحرب وأنا محاطةٌ بأناسٍ من كل حدبٍ وصوب يبررون القتل كلٌ على مقاس حجته ،بالرغم من ان جميعهم فقدوا أغلى أحبابهم مقتولين ،وتسللت تلك الثقافة إلى العبارات اليومية ،فما زلت أذكر ذلك اليوم الذي هدد فيه عميد كليتنا الطلاب القادمين من الجامعات الأخرى لاستكمال دراستهم التي حرمتهم منها الحرب ،بعد أن عثر على كتاباتٍ جدارية ذات معنىً تحريضي سياسي واتهمهم بكتابتها ،مهدداً إياهم بمصع رقابهم وفرمهم كما تفرم الفرامة اللحم !

وكنت أسمع مصطلحات (الفعس والدعس)من ولادتي ،وهي تثير حماس والدي بها أثناء مشاهدتهم لنشرات الأخبار ويتملكني الغضب من كل هذا ،وبينما كان الجميع يحاولون الاصطفاف حول طوائفهم ،كنت أنا منشغلةً بقراءة الأديان من جديد .

زرت مثلاً الكنيسة الإنجيلية ذات يومٍ وحضرت اجتماعاً لهم حدثنا فيه الأخ عن الخلاص الذي جلبه السيد المسيح للبشرية .

وبقيت الأديان هي شاغلي الوحيد في غرفتي التي مثلت بقعة الأمان التي أحتمي فيها من الحرب وأضرارها ،ومن اقتراحات والدتي الملحة على اصطحابي معها إلى حفلات الزفاف العائلية التي كثرت في الحرب ،والتي كانت دوماً تقابل بالرفض مني ،فتتكدس فساتيني الباهظة الثمن ،المخاطة بعناية في خزانتي في حين أن كنزاتي الرياضية الواسعة والمريحة كانت على الفور تهترئ .

تهترئ كما روحي تهترئ لغضبها وحسدها من قريباتي اللواتي نجحن في بناء عائلةٍ ومازلت أنا حبيسة غرفتي خائفةً مما يحصل في الخارج ،تمنعني الحرب وأشياء غير مفهومة من أن أشبههم وأفرح لفرحهم .

وعلى حد تعبير الياس : ((الحرب لم تبق على أحد فينا طيباً ،لقد مسنا شيءٌ من الشر جميعاً)).

أصبح (الياس) شاباً وسيماً ،معتدل القامة ،مرتب الهندام ،يشبه (لويس دافيد)في المسلسل المكسيكي الشهير (كاسندرا)وغيرته السنوات علي كثيراً ،وبرزت كتفاه القويتان على نحوٍ جذاب وجميل .

لم ألحظ عليه ذلك إلا بعد أن كثرت لقاءاتنا سواءً في دكاني أو في المقاهي برفقة خطيبته المشبعة دوماً بالحيوية والنشاط والمرح ،التي تصغره بسنواتٍ كثر .

لم أكن لألحظ أيضاً طباعه الجديدة التي كانت لتظهر أكثر ماتظهر عندما نجلس وحيدين في دكاني ،في زياراته الخاصة لي دون أن يصحب خطيبته معه ،وأرى كيف تدمع عيناه عندما يخاطب الأطفال وهم يشترون المأكولات من الدكان .

أو عندما يحدثني بلغةٍ شاعرية عما عاناه طوال فترة خدمته ،أو عندما يسألني بعد صمتٍ طويلٍ بيننا ،فيما لو كنت سعيدةً في حياتي أم لا ،وأكذب عليه مدعيةً بأنني اعتدت الوحدة وأن كل ما يهمني هو وجود عملٍ في حياتي أشغل به نفسي ،وهو كان يصدقني ثم يعود مطمئناً إلى خطيبته .

فأجلس أنا مع عجوزٍ تسكن بجانب دكاني ،كما اعتدنا أن نجلس كل مساءٍ ونتكلم عن أشياء ساذجة كالطقس أو وضع الكهرباء أو عن تقلب الأسعار .

ولما أضجر أعود إلى حبيبي الشهيد وأختلق له قصصاً إضافية من خارج حياتي لما أشعر بأن الغوص في ماضيَ وذكرياتي يتعبني ويزيد من آلامي .

لا يمكن اعتبار الموت نهاية ،أو الحياة زمناً مستمراً ،فقد توقف الزمن عندي منذ جرحت في الحرب وعدت إلى الحياة مجدداً من خلال ذكرياتي المنصرمة ،التي قتلتها بغروري وتعجرفي .

وكم كنت أود لو أعيد أولئك الأشخاص الذين لا أعلم بأي أرضٍ يقطنون إلي لأعود إلى الحياة من خلالهم .

كما فعلت عودة الياس بي ،وجعلتني أستيقظ كل يوم قبل وقت طويل من موعد استيقاظي اليومي ،لأهتم بملابسي وأناقتي ،وأتناول الفطور مع والدتي محتملةً سماع كل قصصها التي لا تهمني بشيء ،وأنا مبتسمة.

وأن أتجرأ وأقصد السوق ،ذلك المكان الذي تعرضت فيه لحادث الانفجار ،لأبتاع الاشياء لي ولعائلتي .

وحتى أن أتجرأ وأعود لقراءة الجرائد وصفحات الأخبار على مواقع التواصل الاجتماعي .

وأصبحت قادرةً على أن أجد في أي شيء أقوم به متعةً ما ،وقد أخترعها احياناً .

خطفت مني الحرب أناساً كثر ،قد لا أكون على صلةٍ وثيقة بهم ،لكننا التقينا في مكانٍ ما ذات يوم ،أو جمعنا أمرٌ ما .

فمنهم من اختفى ولم أسمع عنه شيئاً ،ومنهم من نزح خارج البلاد إلى إيطاليا وألمانيا وكندا وأكثرهم من زملاء الطفولة .

أفتش عنهم في مواقع التواصل الاجتماعي ،وأتتبع أخبارهم وأتساءل فيما لو أنني سمحت لعلاقتي بهم بان تتشكل كما يحلو لها ،ماالذي كان سيحصل ؟

وهل كانت لتتغير مصائرنا ؟كيف عاشوا سنوات الحرب ؟هل آذتهم بقدر ما آذتني ؟وهل أعني لهم شيئاً اليوم ؟

هل تحابوا وتزوجوا وأنجبوا أطفالاً ؟أم مازالوا مثلي يتحدثون مع حبيبٍ وهمي وهم يعلمون كل العلم بأنه لا أحد يقوم بهذا سوى المجانين ؟!

اتصل بي الياس ذات ليلةٍ كنت قد رقدت فيها في سريري باكراً ،ودعاني إلى جولة معه على الكورنيش في سيارة الضابط الذي يعمل لصالحه .

وقفنا فوق الحجارة على حافة المياه ،وراح يخبرني كم تنتابه رغبةٌ في رمي نفسه في المياه أحياناً ،ليلحق بأصدقائه الذين خسرهم في الحرب ،وبعدد المرات التي كان فيها على وشك أن يطلق النار على نفسه في ساحات المعارك مستعملاً الرصاصة التي كان يحتفظ بها يوما" في جيبه وأسماها رصاصة الكرامة .

لم أخبره كم رغبت أنا ايضاً في أن تدهسني سيارة وأنا عائدةٌ من دكاني ليلاً حيث سبيل الموت الوحيد .

وتحولت على نحوٍ مثير للاستغراب إلى تلك الفتاة الواثقة التي تهدئ من روعه وتذكره بجمال هذه الحياة بينما يسهب في قص ذكرياته عليَ ،وهو يرغم نفسه على عدم البكاء ،فلم أجد نفسي إلا وضممته ،ثم عدنا بالسيارة صامتين إلى منزله .

قضيت تلك الليلة في سريره ،ومارسنا الحب حتى الفجر ونحن ننظر في عيني بعضنا ،على نحوٍ لا يشبه أبداً خيالاتي القديمة عن الجنس .

وفي صباح اليوم التالي اعترف لي بأنه لم يعرف الحب إلا بعد ان دخلت حياته مجدداً ،وأن عودتي جعلته يدرك حبه لي منذ الصغر وأنني كل ماهو

حقيقي في حياته وغير ذلك كانت أشياءً وضعتها الحياة في طريقه واستسلم لها كما اعتاد في الصغر .

ثم امسك بيدي وأخبرني بأنه سيسوي الأمر مع خطيبته ،وأننا سنكون معاً طوال حياتنا ،وكتفيت أنا بالصمت ثم عانقته حتى تصبب مني العرق .

استيقظت من حلمي هذا على صوت والدتي وهي توقظني لأذهب إلى المحل فنهضت من سريري متعرقةً وسارعت لتجهيز نفسي للقاء حبيبي الشهيد !

سافرت ووالدي إلى بيروت رغبةً مني في التحرر من قفصنا الذي بنيناه حول انفسنا طوال سنوات الحرب ،ونزلنا في برج حمود في منزل قريب لوالدي يعيش فيه كمسكن مؤقت ،بينما يقضي وقته المتبقي في السفر والترحال ليبدد حزنه على زوجته التي فقدها في الحرب الأهلية اللبنانية .

وقضينا أيامنا نسهر ونسمر منصتين إلى حكايات ذلك القريب ومغامراته في الشانزيليزيه .

وفي الصباح نذهب إلى الروشة لالتقاط الصور ،وإلى الحمرا فيما بعد لتناول الغداء .

منذ صغري كنت شغوفة بالترحال ، أنتشي لما يقرر والدي اصطحابنا إلى قرية عائلته على الحدود التركية السورية ،حيث كنا نقضي أسابيعاً صيفيةً زاخرةً بكل ما هو ممتعٌ وجميل .

كنت اركض في الحقول وفي يدي سلةٌ من القش وأقطف خوخة من هنا وجفنة عنبٍ من هناك .

يصعب عليَ استحضار ذاكرتي عن تلك القرية ،فنحن لم نزرها منذ اندلاع الحرب بعد سيطرة جماعاتٍ إسلامية عليها وانتشار العملة التركية فيها ،وانقطاع الطريق إلى هناك .

وكأنها سلخت عنا،ويؤسفني أنني ربما لن أعود وأرى ذلك المشهد الرائع عندما تغرب الشمس ويحلق السنونو بين تدرجات اللون البرتقالي التي تصبغ السماء خلف الجبال ،ولمعان الطحالب الخضراء في البركة الكبيرة التي تقع على حدود البلدة ،ومشهد تراكم شقائق النعمان في الحقل المجاور لمنزل جدي ،في أيام الربيع ،وصوت أجراس الكنيسة في البلدة المجاورة فوق بلدتنا ،والتي تبدو لنا مثل لوحةٍ فنية لو أردنا مشاهدتها من سطح منزل جدي .

كان منزل جدي بجدرانه الحجرية القوية ،يقبع عند منعطفٍ خطير للسيارات ،لذا ربما لم يتسنى لنا كأطفال حينها اللعب بحرية أمامه ،فكنا نلجأ إلى السطح لتحررنا نسائمه ويشغلنا سحر المناظر التي تتبدل حولنا ونحن نجلس فيه .

كنت ألتقي بالياس هنالك أيضاً ،إلا أنني كعادتي كنت أتجاهل وجوده ،وأراقبه وهويلعب على سطح منزل جده أيضاً ،أو في الحقل المجاور حيث يتسلق أشجار الزيتون الضخمة ويقفز منها ويصطاد الأفاعي الصغيرة .

اتصل بي وأنا في بيروت ،وطلب مني أن استمتع بوقتي فيها ،وأن أحاول البقاء سعيدةً وأن أتذكره بهديةٍ ما .

أغلقت سماعة هاتفي النقال وأدمعت عيناي ،كنت حينها داخل مكتبة أنطوان في شارع الحمرا ،وانتقيت له كتاباً لستيفان زفايغ لأقدمه له كهدية .

ثم خرجت لأتمشى في شارع بليس إلى جانب الجامعة الاميركية وخلت نفسي والياس ندرس فيها ،وتنشأ بيننا علاقة غرامية ونبتكر بدايةً تليق بنا ،أفكر ،لماذا لا يحق للمرء أن يرسم البدايات ؟أو ينتقل كلياً إلى حياةٍ أخرى ؟

وأنني الآن علمت لمَ يؤمن البعض بفكرة التقمص ؟!

حبيبي الشهيد ،قررت أن أكتب لك من بيروت ،لأبلغك بالأمور التي لايسعني إخبار أحدٍ بها سوى أنت ،فأنا بدأت أشعر بالغربة والضجر هنا ،وزاد ابتعادي عنك من تشتتي وخوفي وفشلي في التصالح مع الماضي ونمت لي رغبةُ جديدة في محادثتك بأشياء بسيطة دون أن أتطرق لذكرياتي مجدداً ،لأنني لم اجد في ذلك نفعاً ،فالذكريات تتربص بك عندما تكون منقوصةً ،وتقول لك :أكملني .وبما أن ذلك من المحال ،تبقى انت أسيراً لذكرياتك .

بيروت مدينة ساحرة ،والسحر يوقظ الذكريات ،لذا توجب علي المغادرة والعودة إليك .

رفض والدي فكرة العودة المبكرة ،واقترحا علي بان ابحث عن فرصة عملٍ في بيروت ،وأؤسس حياةً جديدة ،ولكن هذا يعني أنني سأعيش وذكرياتي ترافقني كظلي ،مشوهةً وثقيلة ،وأنا لم أرد ذلك .

عرف والدي كيف يستغلان وقتهما على نحوٍ افضل مني ،مما أثار دهشتي ،فقد ضحكا بعد كل هذه السنوات ،لقد منحتهم فكرتي السعادة ،إلا أنها أبعدتني عنهم أكثر .

وجعلتني غريبةً ،مثل مخلصةٍ تصلب في نهاية المطاف ! وتترك نفسها لآلامها وذكرياتها المتراكمة لتنهشها .

حبيبي ،لن أكون أنانية وسأدع والدي يعالجان نفسيهما بسحر هذه المدينة ،وأستعين بالكتابة إليك علها تمنحني بعضاً من الصبر .

حبيبي ..

كادت أن تدهسني اليوم سيارة ،كان السائق سورياً ،اعتذر مني والذعر واضحٌ في عينيه ،ظن بأنني سأؤذيه ،مع أنه لم يحصل أي شيء .

تساءلت :هل أصبح الخوف يسري في عروقنا نحن السوريين ؟أو أننا اعتدنا أن يلقى اللوم علينا دوماً ؟

أصطدم بالسوريين في كل شارع أذهب إليه ،عمال ،شحاذين ،مجانين .وألمح ذات الرعب في عيونهم وهوذات الرعب الذي كنت ألمحه في عيون جيراني في الدكان ،رعب سوء الفهم ،والخسارات الفجائية التي تأتي دون ذنوب مسبقة !

فتشت لأحد جيراني في الحي عن أولاده هنا في بيروت ،لإيصال مبلغ من المال لهم كان قد عهد إلي بإيصاله لهم ،فوجدتهم يقطنون غرفةً ضيقةً تكاد تصلح قبراً بالقرب من جسر الكولا ،حيث يكثر السوريون المشردون تحت الجسور .

أحدهم كان قد اصبح مدمناً للحشيش لذا أعطيت المبلغ لشقيقه الذي كان يعمل في مغسلةٍ للسيارات بعد أن فشل في إيجاد عمل في مهنته كطبيب !

تذكرت كلام والدهما عن أنهم يعيشون في سلام واكتفاءٍ في بيروت ،وأن هذا كل مايهمه أما بالنسبة له ،فالله قادر على جعله يحتمل قساوة المعيشة التي خلفتها الحرب .

ماذا لو علم بما جرى لولديه ؟!

حبيبي ،التقيت بالصدفة أيضاً بزميلة لي في الدراسة ودهشت باحتفائها بي ،أنا التي كنت أظن بأن الجميع يكرهني لما كنت عليه في الصغر من غرور وتشاوف واستعلاء .

كانت قد تزوجت برجل ثري في بيروت ،دفع لها المال لتدرس هندسة الديكور في إحدى الجامعات الخاصة اللبنانية ،وبدت امرأة رائعة .

بكت وعانقتني بشدة ،وقالت بأنني أذكرها بأجمل فترات حياتها ،وأنها سعيدة بلقائي سعادةً لم تعرفها من قبل .

دفعني ذلك أيضاً إلى البكاء ،ورافقتها بعد ذلك إلى شاطئ الروشة ،والتقطنا صورةً تذكارية.

لم أرها بعد ذلك ،ولم تتصل بي ،واكتفى كلٌ منا بصدفة جميلة جمعتنا ،دون ان نغوص اكثر فيما يؤلمنا البوح به .

آثرت بعدها البقاء في المنزل ،ريثما يقتنع والداي بفكرة العودة ،وتعلقت بفيلم من بطولة ساندرا بولوك ورحت أشاهده لمرات عدة ،وهوفيلم تجسد فيه ساندرا دور مديرة قاسية القلب ،فوقية ،ترتدي ملابس فخمة على الدوام ،تضطر لعرض الزواج على أحد موظفيها كي لا يتم ترحيلها من البلاد التي تعمل فيها .

ذلك الموظف الذي يمقتها على الدوام ،إلا انهما يقعان في الحب في النهاية ،بعد أن يعلم مافي داخلها ومامرت به حتى صارت ماهي عليه .

تمنيت لو يحصل معي هذا ومع الياس ،لكنت اليوم أسعد من عليها ،إلا أن الأوان قد فات الآن ،ياحبيبي الشهيد .

حبيبي ..

سيان مابين التذكر والنسيان ،طالما نتغير كل يومٍ عن اليوم الذي يسبقه .

فوجئت بنفسي اليوم وبما قمت به ،فلما كنت أتشمس على رصيف شاطئ الروشة ،مر بجانبي رجلٌ طويل القامة عاري الصدر ،شعر صدره كثيف ،كتفاه عريضتان ،وقد صبغت الشمس جلده بلون القهوة ،على نحوٍ جذابٍ للغاية ولن أنكر ذلك ،أو أخجل بالاعتراف لك بأنني انجذبت غليه .وخصوصاً بعد أن أخذ يلفت انتباهي له لما يروح ويجيء من أمامي مستعرضاً عضلات صدره المشدودة وينظر إلي من فوق نظاراته الشمسية ،ثم مر بجانبي وتقصد بأن يصطدم بي معتذراً ،ثم نزل إلى الشاطئ الصخري متعمداً بأن ألاحظ وجهته . لا أعلم ما الذي دفعني للحاق به ،نزلت إلى الشاطئ الصخري فوجدته واقفاً على حافة المياه ينظر إلى البحر ،اقتربت منه دون أن يلتفت إلي ،وأصبحت على بعد خطوة منه ،فاقتربت منه أكثر حتى التصق جسدي بظهره ،وأسندت ذقني إلى كتفه فشعرت بحرارتها ،فلم يحرك ساكناً ،مانحاً إياي كامل الحرية في التعبير عن مشاعري ،قربت رأسي من رأسه أكثر ،ورحت أتنشق رائحة شعر لحيته ،وهنا وكأنني منحته الإذن بالسيطرة ،التفت إلي وأمسك رأسي بيده القوية وراح يقبل رقبتي نزولاً إلى ملتقى ثديً.

عند ذلك الحد ،قمت بدفعه بقوة عني وابتعدت عنه ،وبقي هو متسمراً تحت الشمس يبتسم ابتسامته اللعوب .

التقيت به مرةً أخرى مساءً ،لكن هذه المرة اقترب مني ملقياً التحية عليَ بكل تهذيب وجلس إلى جانبي ،بعد مصافحتي ثم عرفني على نفسه وكأنه لم يحصل بيننا أي شيء في الصباح .

كان سورياً يدعى (عبدو)،نزح مع بدايات الحرب إلى بيروت ،يعمل في مجال البناء ،ويقطن مع اصدقائه في منزل في منطقة الحمرا .

وسرعان ما وجدت نفسي أنا أيضاً أخبره عن نفسي ،ناسيةً تماماً كل ماحدث بيننا ،أخبرته بكل شيء ،حتى عن رغبتي في العودة إلى سوريا فراح يثني على اقتراح والديَ بالبقاء والعمل في بيروت ثم أعطاني رقم جواله وطلب مني الاتصال به لو قررت البقاء والبحث عن عمل ،كي يجد لي عملاً لائقاً على حد تعبيره .

شغلني ذلك الشاب بعد ان عدت إلى المنزل ،لقد منحتني ابتسامته وحديثه المكثف والفكاهات التي يضمنها فيه شعوراً بالراحة ،دفعني إلى النظر في عيني في المرآة ،لأعثر فيهما على الشجاعة والتحدي من جديد .

حبيبي الشهيد ..

وجد لي عبدو عملاً في مركزٍ تجاري ضخم ،التقيت به أمام المركز مرةً أخرى ،بدا فيها أنيقاً للغاية .

رافقني في مقابلة العمل ،وخرجنا معاً بعد أن اتفقت مع رب العمل على كل شيء ،وقصدنا شاطئ الروشة .

جلسنا في أحد المقاهي ،وراح كعادته يسرد الفكاهات والنكت ويبتسم مظهراً غمازته الكبيرة والجميلة .

أخبرني بأنه في إجازةٍ عن العمل ،لعدم التزامه بورشة بناء في الوقت الحالي ،لذا سيتسنى لنا الوقت الكافي للقاء .

وهكذا قضيت الأسابيع التالية أنهي عملي في المتجر ثم أخرج إليه فأجده ينتظرني مع غمازته البارزة .

حين اطمأن والديَ أنني عثرت على عمل والتمسا تغييراً ملحوظاً في سلوكي وحماسي ونشاطي عادا إلى سوريا بعد أن استأجرا لي غرفةً إلى جانب منزل عبدو وأصدقائه بناءً على طلبي .

وهكذا أصبحت قريبةً من عبدو ،نطبخ معاً ،ونتكلم عن كل شيء ،رغم أن وجهات نظرنا السياسية حول ما حصل في سوريا مختلفةٌ ومتباينة .

إلا أن عبدو كان متشائماً أكثر مني ،أنا التي عشت في قلب الحرب وليس خارجها مثله ،وسجنت نفسي أثناءها بتهمة الخوف ،وأصبحت الكتب والذكريات صديقاتي المفضلات .

لما فر عبدو لم يلتفت إلى الوراء أبداً ،وأد ذاكرته هناك ولم يسأل بعدها حتى عما حصل مع أقرب الناس إليه .

كان غاضباً وغضبه هذا لم تشكله الحرب ،بل أثنت عليه ،وشجعت عبدو على الرحيل به وتحويله إلى حياةٍ أخرى .

بالرغم من أنه كان يستقبل شباناً سوريين ويسكنهم في منزله ،دون أن يسألهم عن ماضيهم .

وقد كنت اقابل بعضاً منهم عندما أقصد منزله لنسهر .

وهكذا أصبحت مع عبدو امرأة قوية واثقة ولم يهمني حتى اتصال الياس بي ذات مساءٍ ليعلمني بأنه حدد موعد حفل زفافه وأنه يتوجب علي النزول إلى سوريا لحضوره عما قريب .

حبيبي الشهيد ..

جن جنوني ليلة زفاف الياس ،لم أنزل سوريا ،بل قصدت منزل عبدو عوضاً عن ذلك .

كان قد أنهى اغتساله للتو ولف جسده بمنشفة لما فتح لي الباب ،فهجمت عليه ورحت اقبله في كل موضعٍ من جسده ،قبلته من فمه ورحت ألعق لسانه ،ولعقت شعر صدره ،مصصت عضوه وخصيتيه ،قبلت كتفيه وفشل في جعلي أتمهل قليلاً ،وراح يداعب شعري ،ثم أمسك برأسي ونظر في عينيَ ،وأخبرني بأنه يحبني وأنه يرغب بان أكون له لكن بطريقةٍ أخرى .

نزع عني ملابسي وحملني بين ذراعيه ومددني على سريره ،ثم مدد جسده فوقي وراح يضغط بصدره على ثديي ،وضاجعني حتى تعرق جسدينا ،وعند النشوة نظر في عينيً بعينين براقتين كعيني الياس ،ثم ضمني بقوة بين ذراعيه كي يذيبني من جديدي ،وغفا .

وبقيت أنا أحترق دفئاً حتى الصباح ،عندها استيقظ وأخذ يداعب شعري ويقرب جسدي أكثر إليه ملتقطاً قدمي بين قدميه ،جاعلاً رأسي الصغير رهن اعتقال يده القوية الدافئة .

منذ تلك الليلة انتقلت للعيش معه وأصبحنا نكرر ما قمنا به كل ليلةٍ ،دون ان يخبو دفء عبدو ،وتتعلق أجسادنا ببعضها أكثرفي كل مرة .

وغدونا نمشي عاريين في أرجاء المنزل ،كانت هذه طريقتنا في الحب ،هو الغاضب الفار من رحى الحرب إلى حياةٍ مليئة بالشقاء ،وأنا المستيقظة على غفلةٍ على الحياة ،والتي عثرت بين ذراعي عبدو على نافذةٍ تعبر من خلالها إلى ذاتها من جديد وتؤمن أن للحياة معنىً ما.

حبيبي ..

عبدو رجلٌ رائع ،إلا أنني لا أستحقه وينبغي علي الاعتراف لك بتغييرات كثيرة طرأت على نفسيتي .

فبعد أن منحني عبدو كل حبه ودفئه وقوته ،تسلل شغف السلطة إلي ،فاستلمت زمام الأمور كلها ،حتى في السرير ،كنت أنا من يسيطر ويبدأ بالمداعبات ،أما هو فكأنه كان مستمتعاً بمنحه لي السلطة والحرية الكاملة في التعبير عن مشاعري وأفكاري ،وكان ذلك في رأيه نوعاً من الحب والإيثار.

إلا أنني بدأت أشعر وكأنني والدةٌ له ،أو زوجة شرقيةٌ قوية بوجود رجلها إلا أنها مقيدة.

وبدأت أحلم بحياة أجمل ،بأن ننتقل إلى منزلٍ أكبر ،في منطقةٍ افضل بجانب المركز التجاري الذي أعمل فيه ،وكنت أشعر بالمتعة لما كان يرسل إلي عبدو صديقاً له يدعى (وائل)ليقلني في سيارته من مكان عملي ويأخذني معه في جولة مسائية ليريني ما لم أره بعد من مدينة بيروت .

كان وائل شاباً تبدو عليه مظاهر النعمة والثراء على نحوس مبتذلٍ للغاية ،وكان دائم الفخر بما يملكه بالرغم من أن كل ذلك المال كان مصدره والده الفاسد الذي أرسله إلى بيروت لحمايته ،كما روى لي عبدو .

في البداية كان يكتفي بجولاتنا معاً في سيارته ،إلا أنه شيئاً فشيئاً أصبح يتعلق بي أكثر ويهديني الساعات والقلادات الذهبية ،مبرراً أنها عربون للصداقة القائمة بيننا .

كنت أقبل هداياه وأخفيها عن عبدو ،ثم أشعر بالذنب لما أكون مع عبدو في السرير ،وأحنو عليه حنو أمن كي أكفر عن ذنوبي !

ذات ليلةٍ ،حاول وائل تقبيلي فقاومته ،ثم ركضت مسرعةً إلى منزل عبدو ،وأخبرته بكل شيء وأنا أبكي .

ثم رحت أصرخ بأنه علي العودة إلى سوريا قبل أن أخسر نفسي ،واعتذرت منه على ضعفي وهشاشتي وطلبت منه ان يسامحني على انسحابي من علاقتنا الجميلة .

اقترب مني وضمني إليه بقوة وأخبرني بأنه لن يتخلى عني ،وأنه من الطبيعي أن تمر فتاة مثلي بتلك المشاعر لما تقصد مدينةً كبيرةً زاخرةً بالحياة بعد سنواتٍ من الحرب والظلام .

إلا أن ذلك لم يغير من قراري وما إن انبلج الفجر حتى كنت قد جمعت كل أغراضي في حقيبة السفر وانطلقت إلى السيارة التي ستوصلني إلى سوريا .

ودعني عبدو على باب منزله وهو يردد بأنه على ثقةٍ تامة بعودتي وأنه ينتظرني بفارغ الصبر .

نظرت في عينيه الجميلتين ،قبلته وترددت لبرهة في الرحيل .

إلا أنني تمالكت نفسي واستطعت أن أدير ظهري له وأرحل بصمتٍ إلى منزل والدي حيث سأولد ربما من جديد .

حبيبي الشهيد ..

هاقد عدت إليك ،ويبدو أن العدالة لن تتحقق إلا بهذا ،فأنا لا أستحق أياً من الياس أو عبدو.

الزمن لايعود ،والحياة لا تغيرك بهذه السهولة .

أجلس في دكاني وصورتك مقابلةٌ لي ،وأمامي روايتي التي شرعت في كتابتها بعد عودتي من بيروت .

لا أنتظر أحداً ولا أنتظر شيئاً ،سوى محادثتك أنت ولعله أفضل عقاب لي بأن أقع في حبك المستحيل .

وعلي إخبارك بأمر ،حينما عدت من بيروت حاولت الاتصال بالياس لأبارك له بزواجه ،إلا أنه لم يرد علي ،ربما لم يسامحني عن تخلفي حضور حفل زفافه ،ولم أره بعد ذلك .

شرعت في كتابة رواية كي أنسى .

مر عامان على ذلك ،وقد أنهيت روايتي التي ربما كان يتوجب علي أن أكون أكثر شجاعةٍ في كتابتها .

أمامي الآن روايتي ،وطفل يلهو على الشرفة المقابلة لي ،تقترب منه امرأة أعرفها جيداً تمام المعرفة ،تحمل في يدها مفتاح فتل عزقات ،تحرر صورتك من الجدار بواسطته.

أرى أيضاً شاحنةً تنقل أثاث منزلٍ ،تضع المرأة الصورة في الشاحنة ،تحملق بي ،ثم تسلم علي بيدها .

إنها زوجتك ،وأنا أعرفها جيداً ،وكيف لي أن أنساها ؟

حبيبي ،شرفتك اصبحت خاوية ،ولم يعد في إمكاني حتى محادثة صورتك ،وإخبارك بأنه حدث انفجار كبير اللبارحة في بيروت ،وأنني اتصلت بعبدو مراراً ولم يجب عليَ .

نعم ياحبيبي الشهيد ،لم يجب عبدو على اتصالاتي ..

والزمن ربما لا يعطي فرصةً أخرى ،بل يتوه بنا ويجعلنا نتخبط فيه لا أكثر ...

(الرواية الثانية)

سوق السلام

أو

ملف بلاد ما بعد الحرب

إن كان ولا بد لك أن تولد في مكان ما ،فإنه لمن سوء حظك _ويفضل أن تكتم هذه الجملة في صدرك _في البلاد التي تدور فيها أحداث قصتنا .

أو ربما يمكننا صياغة الجملة على نحو يضمن لنا بلاغة وأماناً أفضل ،بأن نقول مثلاً أنه لا بد لك أن تولد في البلاد العظيمة التي تدور فيها أحداث قصتنا حتى يتسنى لك بأن تحظى بتلك اللحظة الاستثنائية من النشوة التي تصيب المرء عند وصوله ذروة الاشياء ،المجد والقوة والكمال المطلق ،والتي ليس بأيديك أن تقرر امتلاكها ،طالما كان هذا الوصول فرضاً إجبارياً عليك بحكم انتمائك لتلك البلاد ،سواء وكنت طبيباً أو فناناً أو داعراً أو حتى قاتلاً أو لصاً !

فهذه البلاد و يوم ساد السلم فيها بعد حرب دامت سنيناً طوال ،أطاحت بنصف البلاد والعباد ،اجتمع ساداتها السياسيون مع ما يسمى (رجال الردع) والعلماء ورجال الدين و رجال العصابات وقرروا أن الضامن الوحيد لعدم حدوث حرب أخرى هو أن نصبح كلنا عظماء ،أقوياء ،عباقرة ،راقيين ،ساحري الجمال ،براقين ،لاهثين خلف المزيد من القوة والنجاح والعظمة التي تضمن وجودنا في الصراع العالمي مع أعداءنا الكثر ،لذا كان على كل فرد أن يجرب في مجال ما وإن فشل فيه يختار له مجالاً آخر ومن يفشل في المجالات المقترحة له يقصى من البلاد ويوسم بعبارة (اللاجدوى منه)وعندها

يحكم عليه بالإتلاف الفوري كما تتلف القمامة ،ويتم ذلك بشكل سري على أيدي رجالات العصابات الذي يعتبر هذا دورهم الأساسي ،وعندها لا أحد يعلم ماالذي يمكن أن يفعلوه هؤلاء الرجال ،فقد يحولوك إلى سماد ربما بعد بيع جميع أعضاءك !

وبما أن الفنون بأشكالها كالرقص والرسم والغناء والآداب أمور تعتبر غير ذات أهمية ولا تسهم في زيادة قوة البلاد ،فإنه لا بد أن تتم ملاحقة كل من يعمل فيها لإتلافه بأقصى سرعة ،كما يتم ملاحقة المعاقين والقبيحين و المثليين والمخنثين ويتم تصفية المرضى الذين لا أمل من نجاتهم بما يعرف بالقتل الرحيم .

أما المجرم فتتم معاقبته بتسليمه لرجال العصابات وهناك يتكفلون بأمره حيث إن لم يستطع أن يثبت نفسه في فن ما من فنون القتل والتعذيب ،يتلف فوراً !

وبما انه لابد دوماً من استثناء ،تظهر حكايات الأبطال أو ربما البطلات فماذا حدث مع أبطال وبطلات قصتنا ؟

استيقظت من غيبوبة دامت عشر سنوات ،لأجد نفسي في بلاد أخرى لا أعرفها .

قالوا لي عليك أن تضحكي لأنك محظوظة ،فقانون القتل الرحيم لم يشملك وإلا فكنت في عداد المتلفين !

لم أفهم ما يقصدون ، ورحت أختبر قوة ذاكرتي فلم يخطر في بالي سوى مشهد منزلنا وهو يتهدم فوقي بعد سقوط صاروخ ،وحدث هذا على الأرجح لأن بلادنا كانت في خضم حرب أهلية .

قالت لي إحدى الممرضات أنه لم يتبقى لي أحد في هذه الدنيا من أقربائي ،و سألتني بكامل جديتها عن طبيعة عملي وتحصيلي الدراسي ولما أخبرتها بأنني كنت ممرضة قبل الحادثة سرت بذلك و عللت سرورها بأنني نجوت من وضعي في مهنة من المهن الدنيا في البلاد كالدعارة أو لاسمح الله العمل مع رجال العصابات .

لم أرى تلك الممرضة بعدها ،اختفت قبل أن تفهمني ما تقصده ،ثم فهمت ذلك لاحقاً من طبيب في المستشفى وعلمت منه أن تلك الممرضة أتلفت بعد أن صدمتها سيارة و نقلت في حالة ميؤوس منها إلى المستشفى ،وأخضعت فوراً لقانون القتل الرحيم .

قررت إدارة المشفى ان أحل مكانها لما أخبرتهم أنني ممرضة بشرط أن أخضع لدورة تدريبية ،ولن تصدقوا عما كانت الدروس التي لقنوني إياها ،كانت دروساً عن إتقان إعطاء حقن السم لمن يشملهم قرار القتل الرحيم، قتلوا أمامي جنوداً مصابين وعجائزاً ممن لم يكن من أمل في نجاتهم !

بعد أن انتهيت من تلك الدورة وفي أول يوم عمل لي ، أدخلوني غرفة فيها عشرات المرضى وقالوا لي :هيا قومي بعملك ،اقتلي !

لم أتمالك نفسي وأغمي علي ،ولما استيقظت كان رجال ردع المستشفى فوق رأسي ،جروني جراً إلى باب المستشفى وهناك استلمني رجال الردع وزجوني في سيارتهم ذات النوافذ المعتمة ،وراحوا يصرخون في وجهي وهم يقهقهون : (من لايجيد القيام بمهامه نختار له مهمة اخرى ،و عليك أن تشكرينا أننا لن نسلمك لرجال العصابات ،ستكون وجهتك المقبلة هي بيوت الدعارة ! هاهي جاذبيتك ومقوماتك الجسدية تنقذك !).

لما وصلنا بيت الدعارة ،عرضت فوراً عارية على امرأة ستينية ضخمة الجسد مترهلة رغم أنها محشوة بالبوتوكس ،ثم دخل علي رجل علمت لاحقاً أنه يدعم الدولة بالمال ،وطلب مني أن أدلله ولما فقد الأمل في أن أتجاوب معه ،أدار ظهره وقال : (لن أخبر أحداً بأنك لم تجيدي القيام بعملك هذه المرة ! لا أتمنى تسليمك لرجال العصابات فقد أعجبتني !).

تمكنت بعدها من الفرار من بيت الدعارة ،لا تسألوني كيف ؟ غير مهم ،لا أحب أن أطيل الحديث عن الفترة التي كنت فيها عبدة .

أفضل أن أسرد ماحدث معي بعدها ،عندما قابلت الأبطال الآخرين الذين رفضوا العبودية مثلي ،أو سأتركهم يتحدثون بأنفسهم ،فأنا لا أجيد الأحاديث المطولة .

الإنسان ..ما الإنسان ؟ ماالذي تبقى من هذه الكلمة بعد كل ما جرى لنا ؟ لقد اودت الحرب الأهلية ببعض من الإنسان الذي فينا ،وقمنا نحن بالإطاحة بما تبقى منه بأيدينا .

ماذا يعني أن يكون وجودك الإنساني مشروطاً بأن تكون (إنساناً كاملاً) أو عظيماً !

وكيف تكون عظيماً ؟بأن تقتل ببراعة ؟؟ بأن تقبل أقدام الأقوياء والأغنياء ببراعة ؟؟ بأن تسب وتلعن وتسخر من الضعفاء والقبيحين والمثليين والمخنثين ،وحتى من الفنانين والأدباء والشعراء وتبلغ عنهم !

ما معناه رجل الدين إذا كانت مهمته فقط شحذ قوة السلطة والصداح بفضائلها ؟؟

أوأننا محكومون بعيش كل الأزمنة بما فيها زمان مابعد الحرب و نحن عميان ؟!نفلح كما تفلح الدواب ومن يتعب أو يضعف يتلف كما لو كان قمامة ؟!

لم تنتظر ابنتي (إيفا) قرار إتلافها ،بل فضلت أن تنهي حياتها بنفسها ،شنقت نفسها بصديريتها وماتت عارية في أحد بيوت الدعارة بعد ان رفضوها لقباحتها ولأنها لا تملك مقومات جنسية ! وفقدت بذلك آخر أمل بأن تكون مجدية في نظر الدولة .

أثناء الحرب كانت تصنع السترات الصوفية للأطفال المتضررين من الانفجارات والقصف وكانت تحلم بأن تكون راهبة ،وبما أن هذا الحلم ممنوع ومستحيل في هذه البلاد ،فالراهبات لا يفدن الدولة القوية في شيء ! فقد قرروا سوقها إلى بيوت الدعارة لاختبارها ولم تنجح في الاختبار .

كنت وقتها في نظر الدولة زبالاً صالحاً يجيد عمله ،لكن بعد وفاة ابنتي لم تعد لدي القدرة وحتى الرغبة في التحمل وأصبحت الحياة كلها ثقيلة فهربت إلى البراري وهناك التقيت بفتاة ممرضة فارة من بيت للدعارة تدعى (عفاف) ،وصارت تلك الفتاة أكثر من ابنة لي لما جمعنا فيما بعد ما لا تختصره الكلمات لما قصدنا مايسمى (حي المتمردين)...

ما هو الأسوأ ؟ لما كنا في خضم الحرب قالوا لنا أن الأسوأ يحدث الآن وأنه لابد لنا أن نمر في نفق الظلام كي نقابل النور في النهاية ،لكننا يبدو اننا كنا ننقل خطانا من أسوأ إلى أسوأ لا أكثر ،إلى أن غدونا في الحضيض نتخبط فيه كأسماك مصطادة للتو ،وذلك لأننا ببساطة نفعل الشر تحت اسم الخير والكمال .

عشت عمري وكأنني ولدت ونشأت في أعلى سلم عظيم ،بدأت أهبط إلى درجاته الأدنى في اللحظة التي اندلعت فيها الحرب الأهلية في البلاد ،والتي تهجرت بسببها من منزل طفولتي حيث كانت أكبر همومي ومشاغل تفكيري هي حسد الأقارب والمنافسين لي على تفوقي الدراسي أو خوفي من ألا أحظى بعلامات تؤهلني لدخول كلية الطب مثلاً ،ثم جلدتنا الحرب وأرتنا الهموم على أصولها.

وبعد الحرب ،و رغم أنني كنت صفقة ربحها مضمون في نظر الدولة ،طبيبة قوية الشخصية والبنية ،إلا أنني لم أتقبل تلك المهزلة ولم أتوانى عن إعلان عصياني والرفض الواضح للخوض فيها .

قذفوني في بيوت الدعارة وقالوا لي : (تصطفلي ،إن لم تقدري قيمة نفسك ،فهنا نهايتك).

ولما مات أحد التجار الكبار الذين يغذون الدولة بأموالهم في سريري ،وسقطت جثته الضخمة والنتنة فوقي ،اتهموني بأنني من قتلته ،نقلوني إلى

مكان مقفر ورموني هناك إلى أن جاءت إحدى العصابات التي تنهض في الليل واصطحبتني للعمل معها وهناك تدربت على كافة فنون القتل والتعذيب ،ولما علموا أنني طبيبة ،ملأتهم نشوة غامرة وطلبوا مني الاستعداد للقيام بعمليات نزع أعضاء العصاة الذين يتمردون ويرفضون القيام بمهامهم .

استطعت الفرار بمساعدة أحدهم والذي وعدني بأن يوصلني إلى مكان آمن حيث يختبئ الكثيرون مثلي ،وهناك قمت بأعظم ماقمت به في حياتي.

أقر بأنني قاتلة ..لكن هذا لايعني أن يزجونني رغماً عني للعمل مع رجال العصابات ،وأن أتعلم بالقوة فنون فقأ العيون ،والتلذذ بصراخ العصاة ،مجبرة على أن أقوم بذلك مع ابتسامة أيضاً ،إلى أن يأتي مخلصي ،رجلي (رجل الردع)الذي يتعامل معهم ،وأعجبه ويصحبني معه إلى شاليه غير مأهول من شاليهاته الكثر ،حيث يخبئني هناك مخالفاً لقانون بلاده ،لكي أكون مسليا له في أوقات فراغه .

ثم لأقتله أنا بكل برودة رغم لطفه ورغبته العظيمة في التهامي ،كما قتلت زوجي في الماضي لنذالته وخيانته وسخريته المتكررة من مظهري المقرف وجهلي وطيبتي كما كان يسميها .

قتلت زوجي ولم أفر وقتها ،وكنت مستعدة للعقاب الذي ينتظرني ،لكنني بعد أن قتلت ذلك الرجل (رجل الردع) هربت وكأنني أدركت أنني أستحق فرصة اخرى في العيش ،وذلك لأنني تغلبت على رجل عظيم في نظر الدولة ،وكأنني أكافئ نفسي على هزيمته ،لأفكر بطريقة الدولة ،وأنتشي بشعور عظمتي .

عملت بعدها مومساً لفترة قصيرة بشكل مخالف ،أي خارج بيوت الدعارة المخصصة لذلك ،و قد يبدو هذا مثيراً للسخرية .

وعندها احترفت القتل ،ورحت أقتل زبائني بعد ان أمص ثرواتهم وقوتهم وعظمتهم ،حتى صرت أعظم من أعظمهم في نظر الدولة ،وانتشيت بنفسي كما لو أنني طاووس نادر .

حتى استيقظت يوماً واكتشفت بأن أحقادي قد انتهت ،و أنني أشبعت غريزة الانتقام لدي من كل ما يحيط بي ،ووجدت نفسي وحيدة مع ثروة ملطخة بالدم لا نفع فيها .

لذا حملت تلك الثروة وارتحلت في هذه البلاد باحثة عن عائلة لي ،وكأنني طفلة ولدت من جديد ترغب في أن تطهرها عواطف العائلة مجدداً ،إلى أن عثرت على تلك العائلة التي لا أستحقها ،كانوا مثلي رافضين لهذه البلاد ولقانونها ،إلا أنهم لم يكونوا ملطخين مثلي بماض أحمر .

حبيبي ..نعم أنت حبيبي وأود ان أحدثك وأخاطبك أنت ولا أحد سواك ..كما لو أنني أشهر بحبنا وقصتنا أمام الملأ ..أمام الدولة التي تعتبرنا كلينا مجرد قمامة وجب إتلافها ..

أتذكر يا حبيبي معاناتنا ؟ في الحرب ومابعدها وقبلها ؟ الكل عانى في الحرب ومابعدها إلا أنت و أنا معاناتنا تخص الأزمنة كلها ،وكأننا إلهي معاناة يا حبيبي...

ولم ترأف بنا لا ظروف الحرب ولا السلم أو الرخاء ولا أزمنة الفساد ..

فنحن مستثنون دائماً من أية قاعدة في هذه البلاد مهما تغيرت الأزمنة أو تبدلت رؤوس أصحاب القرار ،ولكن مما يشكو الاستثناء ؟فالحياة كلها مبنية على الاستثناء وليس على القاعدة كما يظنون ،والدليل على ذلك أن التجارب الدينية التي تعتبر الأكثر عمومية والأكثر تأثيراً لم تكن سوى تجارباً استثنائية .

لذا فلنفرح ياحبيبي بأن قصتنا قد تصلح أن تكون بين القصص المقدسة ،وخصوصاَ ونحن ندافع عن وجودنا الذي يجزمون بضرورة إعدامه .

أتذكر ياحبيبي عدد المرات التي كان وجودنا فيها تحت رحمة أقوياء ومتبجحين وحتى وحوشاً أحياناً ،وكنا دوماً نتجاوز ذلك بالفرار أو المقاومة أو حتى بأعجوبة ،سواء كان جلادونا من عوائلنا الذين يلطمون وجوههم على هذه التخلفة المعطوبة ،أو من المدرسين والقساوسة والشيوخ الذين يسهبون لنا في دعواتهم التبشيرية والتي الغرض منها إنقاذنا مما نحن فيه ،أو من

(رجال الردع) المهووسين بتأديب من يلزمه التأديب ووضعه على الصراط المستقيم الذي يضمن كونه مواطناً صالحاً ونافعاً للدولة .

وكسر حبنا تلك القوى الطاغية وفتتها ،وهربنا وعشنا معاً في شقة على مقاسنا ،وحملنا على عاتقنا مسؤولية الحياة مبكراً ،إلى أن جاءت الحرب واستدعيت أنا إلى الخدمة الاحتياطية وحاربت سنيناً طوال ،ولم نفترق رغم ذلك .

والآن وبعد ان حل السلم وقرروا بعدم جدوانا ،أمسكنا بأيدي بعضنا وفررنا من حكم موتنا نحو الحياة التي انتظرتنا دوماً وقبلتنا كما نحن لنلتقي بعائلة من الرافضين الهاربين مثلنا ولنعرف بينهم ب(حازم ومنصور)العاشقان اللذان تستحق قصتهما أن تحيا وتعمر.

الفرار جبن .. لكن في حالتنا نحن الفرار هو ذروة الشجاعة ..أو كما يقول المثل (الهريبة تلتين المرجلة) ..ورغم انني كاتبة أؤمن بأنه قد تكون الأمثال التي نرددها يومياً أكثر فحوى مما نكتبه ..

لكنني لن أقبل بطمس مهنتي واعتبارها (لا نفع منها) إذا لم تخدم المصلحة العليا كما كان يردد زوجي المحلل السياسي المشهور والمحبوب ،عندما يحلو له تعييري بمهنتي المخجلة التي لاتصل إلى الشاشات لتخاطب الشعب وتثبت خدره المطلق .

كم كنت غبية عندما أحببت هذا الرجل ؟

الحب الحقيقي عرفته مع (فؤاد) الرجل الذي قادت به الظروف للعمل مع رجال العصابات والذي صعدت إلى سيارته بالصدفة عندما كنت فارة من زوجي ورجال الردع ،وكان هو يهرب طبيبة تدعى (سلوى) من أيدي رجالات العصابات ،لينقلنا كلينا إلى حي المتمردين ،حيث يعيش المئات من الفارين من الموت الحتمي و قانون القتل الرحيم أو من أيدي القوادات في بيوت الدعارة أو أيدي رجالات العصابات .

كان حياً جميلاً ،تمنحك رؤيته الفرصة في التلذذ بالألوان مجدداً ،بالموسيقى والفن والرقص و شغف قبلات العاشقين وضحكات المحرومين والمعاقين،وبكل ماهو ممنوع ومنبوذ ولا نفع منه في رأي الدولة .

أنزلنا فؤاد في بيت يجمعنا مع ممرضة تدعى (عفاف)،استقبلتنا بحماس كبير وقالت باننا سنشكل معاً ثلاثياً رائعاً .

لما ولجنا منزلها ،شاهدنا مالم نكن قد شاهدناه منذ سنوات ،بيانو في زاوية الغرفة ،لوحات بول جوجان على الجدران ،ستريو يصدح بأغنيات عن الحب والرغبة .

صنعت لنا الشاي بالتفاح وقالت بأنها جلبت الفكرة من فيلم إيطالي يدعى (ميليسا)وهو فيلم ممنوع طبعاً في بلادنا ،وهو يحكي عن حالة نفسية لفتاة تغوص في تجربة اكتشافها الأول للجنس على نحو مبتذل وتكاد تتورط في علاقات تقود بها نحو عالم العهر والدعارة .

شاهدنا الفيلم معاً ،ثم سردت كل منا حكاية تجربتها الأولى مع الجنس ،واكتفت عفاف بسرد قصة حبها الأولى التي لم تقد بها إلى أية علاقة جنسية ،لما أغرمت بصديقها في كلية التمريض واستشهد بعدها في الحرب التي شهدتها البلاد .

وودت لو أنني أستطيع أن أحدثهم عن حبي الأول ،لكن هذا كان موجعاً بالنسبة لي ،فكيف أحكي لهم أنني تعرضت للخداع من قبل شاب وغد لم يرد من كل تلك العلاقة سوى إرضاء غروره و هزيمتي في أمر ما لأنني كنت تلك الطفلة المتفوقة عليه في كل شيء ،ثراء عائلتي وقوتها ونفوذها ،وتفوقي الدراسي عليه .

وساءت خياراتي من بعده ،ولم أحظى بالحب الذي أحلم به .

إلا أنني فيما بعد ،وبعد مكوثي بأشهر في منزل عفاف أحببت ذلك الشاب الذي كان يطل علينا كل فترة ويقضي لنا حوائجنا ..

لقد غرقت في حب ذلك الرجل ،رجل العصابات المفعم بالحنان المتوحش ،والذي جر غصباً للعمل مع رجالات العصابات بعد خروجه من السجن بتهمة سياسية ،وبعد أن قرروا وضعه في قائمة (اللاجدوى منه)...

كان شاباً رائعاً من الداخل ،وكان رافضاً بحدة لما آلت له الدولة من أحوال جنونية من هستيريا المال و القوة .

كنا دوماً نستقبله لما يجلب لنا الكتب برحابة صدر وشغف لما يحمله لنا من أشياء منعت عنا سنيناً طوال ،واستبدلت فقط بالكتب الدينية التي كانت أيضاً تستعمل على نحو خاطئ لدعم الأقوياء .

كان يجلب معه أحياناً بضعة أقمشة لنتسلى في خياطتها أو يطلب ممن تجيد الطبخ منا أن تطبخ له المحاشي والكبب والشيشبرك ،وكنا دوماً نفشل في ذلك ونتحجج بأن الثقافة والطبخ لا يجتمعان ،ونضحك ثم نندهش بأنفسنا من تشكيلنا لحوارات مثل هذه،تكاد تكون انقرضت منذ زمن .

لقد أغرقوا البلاد في بحر من الظلام والتعنت والوحشية ،إلى الدرجة التي أصبحنا فيها نعتبر أن الحب والأحاديث العفوية والبسيطة ليس لها وجود .

وتبدلت أحلام المثقفين من تغيير المجتمع وهدم الطبقات إلى إنقاذ ما تبقى من إنسانيتنا والتلذذ مجدداً بمشاعرالحب والصداقة وتذوق الفنون والجمال .

حي المتمردين كان وجهتي دون أي تردد بعد أن هربت من أرض العصابات التي ساقوني إليها عنوة بعد خروجي من السجن ،والذي كان عقاباً لي على ضربي لجاري لما كنت أعيش حالة اكتئاب حادة إثر انهيار مطعم المشاوي والكباب الذي كنت أملكه في الحرب .

لست بقاتل كي أزج مع رجال العصابات ..فليذهبوا ويأتوا بالقتلة والمجرمين الذين يقدسونهم وهم في مناصبهم ..

لقد كنت إنساناً بسيطاً ،ولم أتزوج لأرعى والدي ،وفتحت مطعماً بالقرب من منزلنا يقدم الوجبات الشعبية التي كنت مغرماً بها ،وخسرته في غمضة عين وعشت سنيناً على مضادات الاكتئاب ،إلى أن فجرت كل غضبي بذلك الجار ودفعت الثمن .

ولكن أن تخسر الأشياء المادية أمر هين ويمكن تجاوزه ،إلا أننا خسرنا بعد الحرب أنفسنا وأخلاقنا وكل ما يمكن أن يعيننا على قسوة هذه الحياة وخسارات الحرب و غباء الطاقم السياسي ،ثم أن تزج بعدها لاحتراف القتل رغماً عنك ،فهنا يطفح الكيل ،ويغدو التمرد ضرورة حتمية .

لذا قصدت هذا الحي الذي يثبت مجدداً قوة البسطاء وقدرتهم على العيش بكرامة دون مكائد تحاك أو طغيان يبطش أو هيستيريا تسود وتدمر كل ماهو جميل .

تعرفت في الحي على أناس خسروا أكثر مني ،فوحدتنا خساراتنا وأصبحنا ذاتاً واحدة ،تملك المشاعر ومستوى الفهم وحتى أسلوب التعبير ذاته عن تلك المشاعر التي تخصنا وحدنا ،تخص هذا الشعب الذي لا يفهم معاناته سواه .

الحرية هي ما سعى هذا الشعب له ،لكن ماذا نفعنا اللهاث خلف الحرية ؟

أصبحنا اليوم لا نريد أن نتحرر بقدر ما نريد أن نعود بشراً ...

أسال نفسي وأكرر السؤال ، من أجل ماذا حاربت سنيناً طوال ؟وما الذي بنيناه وإلى أين وصلنا ؟

قطعوا الاشجار وصحروا البلاد وزرعوا وحوشاً فغدت بلادنا غابة ينهش فيها الأقوى والأكثر دهاءً الأضعف والأقل حيلة .

احترفت القتل بالصدفة لأحارب من أجل البقاء ،وبعد الحرب قرروا أن ماينا سبني أن أبقى طوال حياتي (رجل ردع) أسوق الفاشلين إلى رجال العصابات أو بيوت الدعارة وأحمي أصحاب الخصى الكبيرة .

فرزت ذات يوم للعمل كسائق لدى إحدى الخوانم زوجة أحد أصحاب تلك الخصى ،ورافقتها في مشاويرها إلى صالونات التجميل وغرف المساج إلى ان عرضت علي ذات يوم بأن أضاجعها ولما رفضت ،اتهمتني بمحاولة اغتصابها..

جررت إثرها للعمل مع رجال العصابات ،وفررت منهم ،وقصدت حي المتمردين لأكون (رجل حماية)لا (رجل ردع) أحمي الحي من الوشاة والمتجسسين و كل ما يعكر صفو هذا الحي الذي يمثل _ولا أبالغ في هذا _نقطة الصفاء الوحيدة وسط سيل العكارة الذي يغطي البلاد .

أصبحت أجلس من جديد أراقب تغير الفصول ،وأستلذ بجمال ما بناه الخالق ،وكل ما جعلونا ننساه أو نعتبره من توافه وسوافه الأمور .

كنت سعيداً بدوري الجديد في حماية الضعفاء والمنبوذين والمقهورين ،هذا هو دوري الحقيقي ،حماية المستقبل والتقدم والإبداع ،لا الوقوف في وجه كل حلم أو فكرة لما كنت (رجل ردع) بائس ومتوحش .

الموت أحاط بنا لسنوات ،ربما لسوء فهمنا لاختلافنا .إلا أننا اليوم أصبحنا نمتهن الموت ونصر على الاستمرار في لعبته كما لو أننا اعتدنا عليه كطقس من طقوسنا المقدسة .

في الحرب ،هجموا على بيوتنا ونشلوا أرزاقنا واختطفوا اجمل فتياتنا ،وقتلوا من وقف في وجههم .وبعد أن انتهى زمن الإرهاب أصبحنا نرهب بعضنا البعض وكأن تلك اللعنة لن نبرأ منها طالما نعيش وفق قانون الغابة .

كنت أقرأ الفنجان للناس ،لكن تلك اللعنة لم تظهر لي مطلقاً ،مما دفعني للشك بنفسي وخصوصاً لما فوجئت بمصيري ،بعد أن جروني إلى رجال العصابات لتنفيذ حكم إتلافي وهم يصرخون :(الموت للمجدفين ،العالة على الدولة القوية)،ونسوا أنني أم جيدة و نسوا كم عملت للدولة قبل التقاعد .

لقد اصبحت اليوم فارغة لا نفع منها إلا بقتلها و بيع أعضائها ،مثل غنمة ولكن الفارق هنا هو أن الأعضاء لا تؤكل للأسف !

كنت قوية طوال حياتي وكانوا يلقبونني ب(أخت الرجال)،ويستدعونني لتحميم الموتى ،أو لأزغرد في جنازة أو عرس .

وقفت إلى جانب الأمهات المكلومات اللواتي دفن أغلى ما لديهن ،وإلى جانب المتهجرات من بيوتهن في ليلة لم يطلع فيها القمر .

وقادت بي الظروف ذات مرة لأن أعمل كمسلية لزوجات إحدى المسؤولين أثناء الحرب بينما كان زوجها منشغلاً بالتهام خيرات الحرب !ولما حل السلم

وشبعت بطونهم طالبت بنفسها بإتلافي بعد أن تبدلت اهتماماتها وسمح لها المال الجديد بأن تستكشف مجالات أشد جاذبية.

وهكذا رحلت إلى رجال العصابات بعد أن منحوهم الصلاحية بأن يفعلوا بي ما يشاؤون ،إلا أنني استيقظت ووجدت نفسي مرمية في الغابة .

نعم ،لقد راهنت على شيء من إنسانية أولئك الرجال ،وربحت الرهان .

جاء إلي بعدها شاب يدعى (فؤاد) ونقلني في سيارته إلى حي رائع ذو أبنية حديثة البناء محاطة بشتى أصناف الورود ،وقد رسمت على جدرانها رسوم منوعة تعبر عن حب الحياة والشغف بها .

وهناك في الحي أصبحت أم الجميع ،أتنقل من بيت هذا إلى بيت ذاك أقرأ لهم الفنجان وأنشر البسمة .

بعد مكوثنا في الحي أصبحنا نخاف أكثر ،لأنه صار لدينا ما نخاف من خسرانه ،وعرفنا قيمة الحياة وأحببناها مجدداً .

تعرفت على شاب يدعى (وسام)كان قد فقد قدمه في الحرب ،ثم حكم عليه بالقتل الرحيم وهوأكثر ما صرت أخاف من خسارته ،لأنه غدا بمثابة ولدي الذي لم أنجبه .وكنت أزوره كل صباح حاملة له فطائر الجبن الساخنة ،ونجلس معاً ليحدثني عن زوجته التي تخلت عنه وذهبت إلى أحضان رجل من المرتزقة التي يستعملونها (رجال الردع)للقيام بأعمال قذرة في الخفاء .

جنت بعدها زوجته بعد أن أسرف رجل الردع في ضربها على رأسها ،وأتلفت وفق قرار القتل الرحيم ،لذا كان دائم التعاطف مع ذوي الأمراض العقلية القاطنين في الحي ،والذي جلبهم (فؤاد) لحمايتهم من الموت الحتمي وإنقاذ حياتهم .

كان من بين اولئك الذين جلبهم فؤاد ،رجل الردع الذي هربت معه زوجة وسام ،كان قد جن بعد أن انتهت مهمته كمرتزقة في الحرب وواجه صعوبات كثيرة في الاندماج مجدداً بالمجتمع ،وقتل شقيقته إثر مشاجرة بسيطة .

لقد جمع هذا الحي الكثير من التناقضات ،وكان علينا أن نتحلى بالتسامح كي نستمر أمام آلة القتل والهستيريا في هذه البلاد البائسة .

لقد عاد.

قالت والدته لما فتحت له الباب وبعد أن شعرت بالخداع من قبل الزمن فارتسم هذا الشعور على شكل صدمة شلت حركة أعضائها وغيبت انطباعاتها ،ثم استسلم المشهد لأمومتها المكبوتة طوال سنوات غيابه.

عاد (دللول) إلى حضنها بعد عشرة أعوام كانت قد فقدت الأمل بعدها من رؤيته ثانية ،كان قد كبر كما لو أن ما حصل طوال تلك السنوات مر في جسده وشكل الإطلالة الجديدة له ليواجه بها والدته .

(دللول) الذي غاب عنها في ليلة تمرد فيها الموت على الحياة ،وابتلع أعمار البشر على نحو مفزع ولئيم ،بعد أن قرر أن يسكن عقل أحد الشبان الصغار في عمر الخامسة عشرة ويحرضه على إفناء كل ما حوله ،كطريقة أخيرة لإسماع الكون بأنين متراكم ،أو كهروب من حياة لم تعد مفهومة ،وأصبحت ثقلاً لا يحتمل .

فجر ذلك الشاب نفسه في الباص الذي كان ينقل النازحين الفارين _ومن بينهم دللول أو هكذا ظنت والدته _من فوضى الموت والنار إلى مكان آمن خلف الحدود ،بعد أن انبثقت في البلاد أحقاد دفينة وجوع إلى الحياة والموت معاً ،إلى التحرر أو الكبت أو ربما رغبة في التشظي وإعادة التكون من جديد .

ولم يكن ليدرك بأن الفناء لا عودة منه وأنه ليس حلاً يقود به إلى حياة أفضل سواء كان ثمة حياة أخرى مابعد الموت أولم يكن .

ظنت الوالدة أن ابنها (دللول) قد صار في ذلك الانفجار أشلاء تسافر لتشكل لوحة من الأرض والحزن والأحلام المحروقة ،وأنها تركت خلفها لما عبرت الحدود جزءاً من كيانها ،يتربع عرش النهايات المتفجرة ،والتحولات المصيرية القاهرة .

إلا أن دلول كان قد واجه مصيراً آخراً ،درباً معوجاً محفوفاً بالمخاطر والغرائب،بالآهات والحنين والخيانة ،والالم والحيرة التي تقود إلى الجنون ربما .

لما ولج دللول المنزل وكانت العتمة القادمة من الداخل تثير فيه رغبة في أن يسحب والدته من يدها ويركضا معاً نحو منزلهم الأول ،فقد تعايش مع الظلام سنيناً طوال وميز أنواعه ، حتى صارت الألوان التي تدركها شبكية عينه ،تدرجات حقيقية للون الأسود أو ربما مخترعة ،فاللون الأسود الذي يظهر له وهو معصوب العينين ،لا يشبه ذاك الذي يظهر لما ينام بعمق فاراً من نفسه ومن عجزه على الاستمرار في لعبة وضع فيها رغماً عنه ،وما أكثر اللعب التي زج فيها ،وما أكثر الأدوار التي لعبها كممثل في الحياة وأرهقته ودمرت كل مافيه مرات ومرات .

عاد إلى والدته بعد كل هذا فارغاً من كل دور ،منهكاً وكسيراً ،فوجدها لاتنتظر شيئاً ،وهي تعيش ربما على اللاشيء ،في بيت حقير تافه حيث لا كهرباء ولا ماء ولا دفء ،كما لو أنها بداية جديدة أو ولادة جديدة له بين ذراعي أم خرجت من حرب حية وحيدة متروكة لصدفة او لمفاجأة مثل هذه كانت ربما لن تأتي أبداً .

اصطحب دللول والدته إلى حي المتمردين وفي الطريق إلى هناك حكى لها ما أدهشها عما جرى له طوال تلك الأعوام ،من اختطافه من قبل بعض الإرهابيين في الحرب وإرغامه على تعلم صنع العبوات الناسفة ،ثم مبادلته بأحد أسراهم وانتقاله للعيش وحيداً في غرفة ضيقة والعمل في البناء من أجل إكمال دراسته ومحاولاته الفاشلة في تقصي مصير والدته ،ثم منعه من السفر لكونه قريباً لشخص تورط في أعمال القتل في الحرب ،مروراً باعتقاله وجره من قلب الجامعة التي يدرس فيها وتعذيبه وإهانته في غرفة مظلمة معصوب العينين ،ثم فراره عبر الحدود بطريقة غير شرعية إلى البلاد المجاورة حيث أذل وضرب أكثر ،وعمل في بيع أوراق اليانصيب ،وصولاً لاختطافه من قبل رجال العصابات الذين انتشروا بعد الحرب وزربه بين الجثث لشهور لرفضه تعلم فنون القتل والتعذيب ومحالفة الحظ له بأنه وفي ليلة طيبة تشاجر فيها الرجالات مع بعضهم البعض وقتلوا بعضهم ،استطاع الفرار والعودة إلى والدته و إنقاذها قبل أن تقر الدولة بعدم جدواها وتحكم بإتلافها .

لكن وفي لحظة دخولهما الحي ،توفيت والدته على غفلة ،كمثل كل الأحداث التي مرت في حياته ،والتي كانت تحدث رغماً عنه و تنهشه في كل مرة بلؤمها الفجائي وتتركه أضعف مما قبل وأقل ثقة بالمشاعر ،إلى أن يسحبه حدث جديد و يذهب معه بكل سرور ،كمن وجد هويته في الحرب ،أو الآلام..

غنى لها أثناء دفنها :

أنت يا وعدي بالطمأنينة ..

الذي لم تمنحني إياه الحياة ..

بعد ضياع وضياع وضياع ..

كم الحرب تغلغلت في داخلي ياأماه ..

حتى أصبحت عاجزاً على ذرف الدموع عليك ..

والسلم ..ماذا فعل بي السلم ؟

لا سلم والخوف لازال مائي ..

ما الذي أذكره من زمان ماقبل الحرب ؟ قبل أن تحولني إلى غريبة عن كل شيء .

هل ابدأ من تلك المراهقة التي رمت بأشعارها الرديئة المكتوبة لمدرس التربية الوطنية الوسيم والاشقر في القمامة وذلك بعد أن خسرته هي وجميع صديقاتها ولم يختر أية واحدة منهن ليتزوج بها وتزوج من أخرى لايعلمن عنها شيئاً ،ثم وبكل ما أوتي لشخص مخذول من طاقة ليتمرد بها ،انضمت إلى المظاهرات الاحتجاجية التي شهدتها البلاد ولما حمل البعض السلاح ضد الدولة بقيت معهم بداية إلى أن طلب أحد أصدقائها منها أن ترتدي النقاب ،وكان ذلك الصديق قد قبلها في الماضي وعوضها عن كل خساراتها العاطفية بفقدان المدرس ،فرضخت لرغبته أولاً ثم لما بدأ يأمرها بأن تصمت نهائياً وألا تسمع الآخرين صوتها أو تدلي برأيها أمام من هم أعلى منها ،فرت ولحقت بسيارة أهلها لتنزح معهم إلى مدينة أخرى .

اضطررت حينها للعمل في مركز تجاري في توضيب الأغراض ،إلى جانب دراستي في الكلية التي قاومت كثيراً للبقاء فيها بعد أن أدليت برأي سياسي على الفيس وقام أحد الطلاب ابن مسؤول مهم في الدولة بتهديدي بشكل صريح وأخبرني أنه سيغتصبني لو رآني في الكلية ورغم ذلك استمريت فيها غير مكترثة .

عندما تخرجت وجدت صعوبة كبيرة في العثور على عمل في مدينة لا تعرف من السياسة سوى اسم رئيس الدولة وذلك بسبب موقفي السياسي ،لذا

غادرت وعائلتي البلاد ورحنا نراقب من بعيد ما آلت إليه البلاد حتى جاء السلم وعدنا ثم ندمنا .

حكم علينا بالاتلاف الفوري بعد اعتبارنا خونة ،وقدمنا إلى رؤساء العصابات ،فقتلوا عائلتي واحتفظوا بي بعد أن علموا بأنني كيميائية وذلك لصنع القنابل اليدوية والعبوات الناسفة .

ذات ليلة دخل علي أحدهم وقادني إلى سيارته وهناك اغتصبني ثم قاد السيارة إلى مكان مقفر ورماني هناك لوحوش البرية ،إلا أن ملائكة حي المتمردين تلقفتني وهناك أصبح للحياة معنى من جديد .

انتظرته طويلاً ..وعدني بالقدوم ليرافقني في أول يوم لي في الجامعة ،كان ذلك قبل أن تبدأ الحرب لكنه لم يفي بوعده ..

بعد سنوات علمت أنه أصبح إماماً ،وقيل بأنه اختار هذا هرباً من تأدية الخدمة العسكرية ،لكن هذا لا يهم ولن يغير من شعوري تجاهه .

تركني وحيدة في الحرب ،أصارع من أجل البقاء ومن أجل أن يغفر لي المجتمع ويتوقف عن الهمس لما تمر من أمامه طالبة جامعية وعلى حضنها طفل أنجبته بالحرام ،تحمله إلى غرفة بائسة في شارع تقتات النسوة فيه بفضل أعضائهن الأنثوية .

ثم وفي يوم مشؤوم يختطف هذا الطفل من بين أيديها ،ربما على أيدي تجار الأعضاء الذين انتشروا في زمان الحرب ،لتجابه بمفردها مسيرة طويلة من الألم والبؤس والتشتت وسط عاصفة الخوف والتشظي التي عصفت في البلاد وتتنقل فارة من تهديد بالقتل هنا وتفجير هناك .

دقت كل أنواع العذاب التي يمكن لأية امرأة وحيدة في الحرب أن تذقها ،وفكرت مراراً بالانتحار أو الفرار في صندوق سيارة إلى بلد آخر لأعمل مومساً برخصة أو حتى فكرت مرة بان ألتحق برجال العصابات لأمارس القتل وأفرغ كل أحقادي على من تخلى عني أو على الحرب برمتها و على من كان مسؤولاً عن كل الشقاء الذي نعيش فيه .

و إن كنا قد عجزنا أمام الأسئلة الكبرى التي طرحتها الحرب ،إلا أنه يتوجب علينا أن نلاحظ تغيرنا الكبير الذي تمخض عنها ،وأن نسأل كيف يمكن للحرب أن تجعل من قصة فتاة مثلي قصة ذات قيمة ،فيها الكثير من العبر و الاكتشافات .

أنا المنذورة لقسوة الأيام ،الحاقدة على المغالطات والنزاعات ،الجائلة بين فتات المشاعر أتبع المسارات المتاحة القليلة آملة بأن تقودني إلى يوم واحد فقط من شأنه أن يغير أيامي .

وجاء ذلك اليوم على غفلة ،لما قصدت ذات يوم السوق لأبتاع ثياباً سوداء من اجل الحداد لحضور عزاء شقيق صديقتي الذي عثر عليه في إحدى المقابر الجماعية التي نفذتها جماعة إسلامية تدعو نفسها بأنصار النبي ! تخيلواأليس هذا مثيراً للدهشة بأن تقتل جماعة تدعي نصرة نبي وترسخ الموت في حين أن الأنبياء كما نعلم جاؤوا من أجل الحياة ومن اجل جعل هذه الحياة جيدة وقابلة للعيش .

عندما دلفت ذلك السوق الذي يرتاده من يفتش عن الرخص وكساء البدن بأي خرق كانت شعرت بالدوار جراء جوعي الشديد وقلة حيلي ،ودنوت من أحد الباعة الذي كان يدخن النارجيلة أمام دكانه ،فسارع وأجلسني بقربه ثم أحضر لي كأساً من الماء ووجدت نفسي أسرد له حكايتي دون مقدمات ودون ان أنظر في عينيه لشدة حاجتي إلى أذن بشرية تنصت لي باهتمام .

سرعان ما تطورت علاقتي به لاحقاً ،فأخبرني قصته وكيف فر من ساحات المعارك في الحرب واختبأ في ذلك الدكان .

وذات يوم تزوجنا ووعدني بالعثور على ولدي الضائع ،ووجدناه معاً في دولة أخرى بعد أن تم بيعه من قبل إحدى عصابات الحرب إلى أناس ميسورين .

بعد انتهاء الحرب أصر زوجي على أن نحمل طفلنا ونهرب إلى حي المتمردين وبعد وصولنا علمنا أن اسم زوجي قد جاء ضمن قائمة المحكوم عليهم بالإتلاف الفوري بعد عده من الخونة وهناك اختبرت للمرة الأولى معاني كثيرة لم أكن لأختبرها كمعنى العائلة والحب الزوجي والصداقة .

في ذلك الحي الذي صمد أمام قوة القصف الهائلة نجحت في تركيب بازل كلمة (الحياة).

الأشياء هي أكثر ما تعلقت به بعد عودتي من الحرب ،أغرمت بالسرير ورائحة النفتالين والكولونيا التي ترشها والدتي على الأغطية ،أما البشر فكان عصياً علي بان أعاود فهمهم من جديد ،لذا ابتعدت ..ابتعدت عن الجميع ،أبي وأمي وأخوتي وأصدقائي حتى نفسي سلمتها ليد فتاة قبلت بالزواج بي .تركتها لها كالعجينة لتشكلها من جديد ،لتبث فيها من رقتها علها تلمس في قلبي خيط الشعور من جديد .

إلا أن رغبتي الملحة في إعادة التكون من جديد ،و ملأ الفراغات التي تزخر بها حياتي بدءاً من الطفولة ،إلى ما غدوت عليه الآن بعد العودة من الحرب وكل ما اقترفته من جرائم فيها رغماً عن أنفي ،قد جعلت تلك الرغبة من علاقتي بزوجتي علاقة طفل بأمه ،والتي تحاول أن تزيل الغشاوة عن عينيه ليرى فقط الطريق الوحيدة التي تقوده للإنسان الصالح والجيد في نظر الجميع .

لكنني كلما كنت أقترب من ذلك الإنسان كلما كنت أرفضه ،وتعود تلك الندوب والجروح التي سعت زوجتي لترميمها بشتى الطرق إلى البروز ،مذكرة إياي بأنه لا يمكنني التغاضي عما حصل بكل هذه البساطة ،واعتبار وكأن شيئاً لم يكن وتجاهل حقوق الموتى ونسيان الظلم الذي سببناه في حق الكثير من متضرري الحرب .

لذا هجرت زوجتي ومضيت للعمل مع أحد أثرياء الحرب كنت على معرفة به ،وعندما شتمني ذات يوم لم أتقبل أن تأتيني إهانة من شخص كنت السبب

في صعوده وبناء مجده ،فأوسعته ضرباً حتى أغمي عليه ثم جررت إلى رجال العصابات لأستلم عملي الجديد كقاتل .

كان هذا أمراً مستحيلاً بالنسبة لي أن أقتل مجدداً ،بعد كل الدماء التي أرقتها في زمان الحرب ،لذا فررت منهم .

بحثت عن زوجتي فعلمت أنها أصيبت بحالة عصبية إثر غيابي وحكم عليها بالإتلاف الفوري بعد استئصال رحمها لبيعه .

غضبت بشدة ورحت أصب لعناتي على هذه البلاد ،واكتنفني شعور بالكراهية والسخط كان قادراً لقوته على أن يفتت أعتى الصخور .

لذت بحي المتمردين كي أنسى ،ولأندم كما يحلو لي ،ولأعيش مع ذكرياتي عن تلك الزوجة التي لم تنل ماتستحقه مني .

فور وصولي الحي تزوجت مجدداً ،ربما ببساطة لأنني لم أحتمل الوحدة .

كانت قاتلة مثلي ،اعترفت لي بذلك ولم يهمني الأمر ،طالما أننا سنكون معاً منذ الآن نحاول محو ذنوب بعضنا البعض .

قرأت كثيراً لطاغور وحسدته لقدرته على تحويل حزنه على فقدان زوجته إلى شعر رائع ،أما أنا فلم تنفع معي كل السبل ولم تفلح في جعلي أنسى من فقدتهم وما فقدته .

وكلما كنت احاول التحلي بصبر طاغور ،وأرقص حتى الثمالة بكل رغبة مني كي أنسى ،طفت الذكريات على سطوح دموعي .

أرغب في التقمص

أن أغدو بحاراً بريئة من الفراغ

أن أكون الغيم الكبير الغائر

في برك الحقيقة

المأخوذ بسحر الثريا ....

أحاول كتابة الشعر ،فتجدني أخفق ،وأفشل فشلاً ذريعاً لما يتربص بي شعور الحقد .

حاقدة أنا على أشياء وأشياء نصفها مجهول ،ونصفها الآخر أدركه جيداً وأتجاهله متعمدة ،تحسباً من أن يقتلني بوحه لنفسي .

لذا لن أبوح بشيء ،فوقت الحرب والأوقات الأخرى سيان عند راقصة في ملهىً ليلي .

الذل والخوف والمفاجآت التي تحمل معها وشوماً للقلب تدوم عمراً ،أو قلقاً وتوتراً وصراعاً مع الذات ينهشها ويصيبها بالإحباطات المستمرة والاستصغار وعدم الثقة بأنفسنا ،هي هي في كل زمان ومع أي نوع من الوحوش .

قبل الحرب كان أسياد جسدي معروفين ،قلة تعلمت كيف أحمي نفسي منهم جيداً ،إلا أنه بعد الحرب ظهر لنا أسياد وأسياد ،يحبون ويشغفون ويقتلون بطرق شتى لا تعد ولا تحصى .

و ماذا عن زمن السلام ؟ لقد عوملت فيه كسلعة كما لم أعامل من قبل طوال حياتي ،فأنا راقصة دورها على الأكثر إسعاد الكبار أو الإتلاف الفوري دون ذلك .

أو ربما منحها حي المتمردين خياراً جديداً وفرصة أخرى للعيش أو التوبة !

لم أعد أفهم شيئاً ،لم يعد أحد يثق بي ،حتى وأنا أقدم لهم المساعدة يظنونني أطمع بشيء مقابلها ،أو أنني أخبئ لهم من وراءها مصيبة ما .

هذا ما قاله والدي قبل يوم من وفاته ،ولأنه كان مريض ألزهايمر فقد أنقذه هذا من معايشة الحرب بكامل قواه العقلية ،إلا أنه في فترات يقظته كان دائم الدهشة منا ومما غدونا عليه ،من خوفنا الدائم وكلماتنا القليلة المدروسة ،ورغبتنا الدائمة في أن نغلب أحدهم ،أو سعينا الدؤوب لأن نتفوق وندعس على خصومنا وأن تغدو سمعتنا الأخلاقية _حتى ولو كانت مجرد كذبة _ أكثر زكاء من سمعاتهم .

نعم فالبقاء في هذه البلاد لمن يبني صرحاً أكبر يمارس فيه مايشاء من أعمال عظيمة شرط أن يكون بارعاً في تغليفها !

نحن كاذبون ،لكننا أقوياء وعباقرة ...ونبتسم من صميم قلوبنا لأننا نجيد اصطناع الضحكات الحقيقية !

لقد نسينا بسرعة ما اقترفناه من فظائع ،ثم غدت تلك القسوة قوتنا وقانوننا اليومي .

حملناها معنا إلى الشوارع والأقبية والسجون ،إلى المدارس والجامعات ،قسوة مشوبة ببلاهة سفاح تجرف معها في سحابتها السوداء عواطفنا أو كل ما يشكلنا ويميزنا كبشر.

كان من المقرر إتلاف جثة والدي فور استئصال مايمكن الاستفادة منه من أعضائه ،ورغم أننا كنا مدركين أن هذا يحدث للجميع إلا أننا رفضنا أن يجرى ذلك على والدنا ،وقصدنا حي المتمردين حيث يمكن دفن والدنا بمايليق به ،حيث شهدنا مقبرة تملؤها السكينة والاطمئنان !

تحتاج وقتاً قصيراً للغاية لتبني عرشاً تخوف به شعباً ،إلا أنك تحتاج سنيناً طويلة كي تفتت هذا الخوف وتزيله من أبسط التفاصيل الحياتية لهذا الشعب ،وهذا ربما ما أدركناه متأخراً ،فريثما كنا نتعافى من خوفنا القديم كانوا يرسخون خوفاً أشرس و أكثر عناداً وديمومة .

هذا الخوف الصارم ،الأبدي جعل منا أشباحاً تمشي ونهش إنسانيتنا ،وحول أيامنا إلى ورق رزنامة يطير منا حاملاً معه حكاياتنا المنقوصة ،ومشاعرنا المسروقة ،وغدونا نعيش التفاصيل البسيطة والعادية وكأنها فردوسنا الصغير المنمنم ،الذي لا نستحق سواه .

لقد خدعونا و استغلوا اقتتالنا والتفاتنا إلى توافه الأمور ،وسرقوا الأخضر واليابس وبنوا تلك الدولة القوية التي تصلح للتباهي بها أمام العالم على جثث القتلى وصرخات الضعفاء .

الكل شارك في هذه الجريمة ،رجال الدين والعلماء والسياسيون والعاهرات ! العلمانيون والملحدون والمؤمنون ، الرجال والنساء ،بعد أن أغوتهم قوة الفولاذ ليسعوا إلى بلوغها .

لكنهم لم يبلغوا شيئاً ، وازداد عدد الرافضين لكل هذا وكبر حي المتمردين وظل يكبر إلى الدرجة التي أنارت فيها أضواءه البلاد بأكملها وتسللت إلى قلوب الجميع .

نبذة عن المؤلف

الاسم :الحسين سليم حسن

من مدينة اللاذقية

الأعمال السابقة :

مايهم أنك حي (رواية) عن دار الحوار للنشر . اللاذقية ـسوريا

مدينة مصطفى (رواية) عن دار المعتز ـالأردن

الكتاب المسجون (رواية) عن دار تجمع المعرفيين الأحرار ـكردستان

جنين لا (خواطر) عن دار قصص وحكايات للنشر الالكتروني

سلطة وقصص أخرى عن دار قصص وحكايات للنشر الالكتروني

نشرت عدة قصص في مجلة أغلى شباب .